عائد خصباك

كتاب الشارقة الثقافية 05

شرفة زينب الجزّار

قصص

رئيس التحرير: **سمير درويش**

تصميم الغلاف إهداء من:
أحمد اللبُّاد

نائب رئيس التحرير والمخرج الفني:
عادل سميح

مدير التحرير: **سارة الإسكافي**

شُرفة زيْنب الجزَّار

قصص

عائد خصباك

نوفمبر 2021

رقم الإيداع: 25401/ 2021

الترقيم الدولي: 978-977-748-500-5

كتاب غير دوري، يصدر عن مجلة **ميريت الثقافية** بالتعاون مع دار **الأدهم** للنشر والتوزيع

المراسلات: **مجلة ميريت الثقافية** email: miritmag@gmail.com

المواد المنشورة بالكتاب تعبر عن آراء المؤلف فحسب

كتاب ميريت الثقافية
5

عائد خصباك

شُرفة زيْنب الجزّار

قصص

الأدهم للنشر والتوزيع

سائح

بيني وبين منير علاقة طيبة، أراه من وقت لآخر، كان معلمًا في مدرسة ابتدائية، كلما مرَّ على «مقهى الجندول» ورآني جالسًا هناك، حرص أن يسلِّم عليَّ ويسأل عن حالي وكيف تسير الأمور معي، ما اشتكى منير من عضو تداعى له جسده بالسهر والحمى، الحياة سارت معه مثلما تسير مع الناس الذين لا يحشرون أنفسهم في شؤون غيرهم.

في مقهى الجندول، أثناء شربه للشاي يحدِّثني عن جزيرة كريت اليونانية وروعة ناسها وكرمهم لكل من حلَّ ضيفًا على جزيرتهم، ويحدِّثني عن جمال طبيعتها، جبالها وبحرها، جداولها، ونقاء هوائها، وبشكل خاص في فصل الربيع، فأقول له: أذهبت يومًا إلى هنا؟

يجيبني: لا، سأذهب ذات يوم.

في يوم آخر، في مقهى الجندول وأثناء الشاي، يحدثني بحماس وبلغة من لم تفتْه شاردة أو واردة، أو معلومة حتى لو كانت عابرة وما تستحق توقف المرء عندها: أن متحف «برادو» في مدريد احتوى على كنوز فنية لا تقدَّر بثمن وما ترى مثلها في متحف آخر، وأن مدينة غرناطة لا يوجد مثلها مدينة نابضة بالتاريخ والحياة، أما «قصر الحمراء» في الأندلس، فلن ترى شبيهًا له في القصور القديمة التي ما زالت مشيّدة.

أقول له: أذهبت إلى هناك؟

يجيبني: لا، سأذهب ذات يوم.

في مقهى الجندول يحدِّثني عن جزر الآزور، في البرتغال، المتألفة من تسع جزر بركانية، شجَّعني أن أراها معه فهي مكان مثالي لوجود الثدييات البحرية والطيور نادرة النوع، شجعني أن أرى مُصارعة الثيران هناك.

أسأله: هل ذهبت إلى هناك؟

يجيبني: لا، سأذهب ذات يوم، وقد أعزف للناس في الجزر على الجيتار وأغني لمحمد قنديل أغنية أو اثنتين. قلت: لكنَّك يا منير ما عزفت على الجيتار قبلًا ولا جرَّبت الغناء!

يقول: أتدرَّب فلم العجلة.

انقطعت أخبار منير عني، ربما أسبوعين أو ثلاثة، ظننت أنه سافر إلى جزيرة كريت أو جزر المالديف وربما لجزيرة سُقُطْرة في اليمن أو سيريلانكا أو غيرها، لكني عرفت فيما بعد أن أفرادًا من ميليشيا مسلحة اقتادوه ليلًا في سيارة لا تحمل أرقامًا إلى مكان مجهول، وما عاد منير.. إلى اليوم ما عاد.

الطريق إلى كازابلانكا

منذ أكثر من أسبوعين والأستاذ حسن يخطِّط لتصحيح أوراق امتحانات الطلاب؛ فقد تراكمت وما وجد بعد طريقًا للانتهاء من تصحيحها، دائمًا هناك شيء ما يدخل على الخط فيؤخِّر ذلك التصحيح.

اليوم جمعة وجميل هذا اليوم، لا دوام يسمع فيه سؤالًا من طالب، ولا ضجَّة في الصف أو الممر، ولا فيها كتابة على السبورة، ولا غبار طباشير يملأ الأجواء حوله.

أثناء الإفطار طلبت منه أمه أن يأتيها بكيلو «كعك أبو السمسم» متى تهيَّأت له فرصة لذلك، لأن خالته وابنتها ستأتيان لزيارتها عصر اليوم.

قال: من ستأتي مع خالتي من ابنتيها، سعاد السمينة أو زينب الحولة؟

قالت: ستأتي معها زينب، ولعلمك، هي حولة لكن حوَلها من النوع الذي يزيدها حسنًا وجمالًا ودلالًا، تتمنَّى البنات ممن يعرفنها، أو لا يعرفنها، أن يكون لهن حَوَل كحَوَلها، يتبخترن به أمام عباد اللّه.

قال: سآتي بالكعك يا أمي، سواء جاءت هذه أو تلك.

فكَّر أن يبدأ يومه، أولًا بتنظيف حذائه وتلميعه؛ فقد رجع منتصف ليلة أمس من سهرة قضاها كالعادة في نادي المعلمين

مع الأصدقاء، لا يدري بماذا تعثَّر في الزقاق المظلم أثناء عودته إلى البيت، أتعثَّر بجرو غافٍ أم قطة نافقة أم بكوم من قمامة أم صفيحة متبعجة، أو أن حذاءه ربما خاض في مياه ضحلة، لا يستطيع الذهاب إلى نادي المعلمين الليلة وحذاؤه هذا كحذاء متشرِّد، لا يمكن التساهل في الأمر، عليه أن ينظفه ويمسحه ويدهنه ويلمعه ليعود من جديد حذاءً يليق بمدرس لغة إنجليزية، معروف لدى الطلاب جميعًا أنه ينطق الحروف والكلمات الإنجليزية كما ينطقها أهل تلك اللغة في بريطانيا.

لكن قبل أن يبدأ بهذه أو تلك، قام إلى التلفزيون يفتحه، فسرَّه أن يسمع المذيعة تعلن بصوتها الرخيم أن فيلم الجمعة الصباحي هو «كازابلانكا» فارتاح للمفاجأة، كازابلانكا فيلم حسن الصيت، مثَّل أدواره الرئيسة كبار نجوم السينما، وفاز بجوائز عالمية معروفة.

سيرى «إنجريد برجمان» التي ما ارتقت ممثلة سينما أبدًا إلى جمالها وروعتها في الأداء، ويرى «همفري بوكارت» معها، فماذا يريد أكثر من هذا في يوم جمعة كهذه! نسي أوراق الامتحانات والكعك بالسمسم ونسي حذاءه الذي بحاجة للتنظيف والتلميع.

بدأ الفيلم وجلس لا يريد أن يقطع أحد عليه متابعة الأحداث، سارت الأمور على ما يرام إلى أن وصل المشهد الذي ضم البطلين في حانة الميناء، وقد جلسا يشربان الإسبريسو وقبلها سمع وشيش ماكنة القهوة وشهقاتها المتكررة بالبخار المندفع ورائحة البن البرازيلي النفاذة تصل إلى سمعه فيشمها كما لو كان قريبًا من ماكنة القهوة.

ما أطيب رائحة البُن المطحون، وما أحلى إنجريد برجمان في معطفها الصوفي الناعم بحُمرته الداكنة، سحر آسر لا يفلت منه

أحد وهي تمد أصابعها الدقيقة الرشيقة الناعمة النورانية المرتجفة قليلًا على الطاولة فيلتقطها همفري بوكارت غير مصدِّق ولا آبه في الوقت نفسه، وقد كانا يحتفيان معًا باللقاء بعدما تباعدا، قالت: لا تتعجل في شرب الإسبرسو فليلنا طويل في كازابلانكا.

في هذه اللحظة بالذات وصل نداء أمه عاليًا: تعال يا حسن، تعال، طفحت مياه المرحاض، وما عليك إلا أن تجد حلًّا نهائيًّا لها، لا يمكن أن تطفح مياهها الثقيلة علينا كل يوم، اترك هذا الذي تراه وتعال.

ضاعت أنامل إنجريد أو اختفت من على الطاولة واختفى وجه همفري بوكارت، فما عاد يدري هل أتى همفري بوكارت على الإسبرسو أم لا، هل كان ليلهما طويلًا في كازابلانكا كما قالت إنجريد؟

دنت الساعة وانشقَّ القمر

بسبب كاميرا مستعملة اشتراها من «سوق هرج»، فكَّر مجيد جدّيًّا بتغيير مهنته ويفتح محلًّا للتصوير. قبل هذا أتقن مجيد إصلاح أجهزة الراديو، وله محل صغير في السوق هناك، كان يحصل من عمله ذاك على دخل كافٍ، لكن، لم تعد المهنة كما كانت، الأمور تغيرت وتقلَّبت وما عادت الحال كما هي عليه في السابق.

اشترى مجيد الكاميرا فوقع في هوى التصوير الفوتوغرافي. أخذ يصوِّر بها هذا وذاك، هذا المبنى وذلك الجسر، والتقط بعدسته مواقف معينة، وبدأ يؤمن أن الحياة فقاعة فعلًا، عليه يصوِّرها قبل أن تنفجر.

عندما رأى وليد الذي يتعامل بالحاجات القديمة في سوق هرج، صديقه مجيد والكاميرا بيده، قال: «دنت الساعة وانشق القمر».

كثيرًا ما يردِّد وليد هذا القول، لكن في كل مرة يختلف معناها عن سابقتها، فحسب الموقف الذي هو فيه يتحدَّد المعنى. وليد لم يحب الشعر يومًا، لكن لسبب ما حفظ هذين البيتين لـ«امرئ القيس»: دنت الساعة وانشق القمر/ عن غزالٍ صاد قلبي ونفر/ أحور قد حرت في أوصافه/ ناعس الطرف بعينيه حور.

يقرأ وليد هذين البيتين من الشعر في جلساته الليلية أمام باب الخان الذي استأجر فيه غرفة يقيم فيها.

في أول رمضان، كانت الظهيرة حارة فالتجأ وليد إلى ظل في زاوية بعيدة عن الأعين ليدخن سيجارة، أخذ ينفث دخانها بتروٍّ،

وفجأة داهم المكان شرطيان ما رحماه بسبب إعلان إفطاره، أحدهما أحكم القيد حول رسغيه قبل أن يقوده إلى مخفر الشرطة. سار وليد معهما حاملًا معه ذنبه.

اغتنم مجيد انشغال الشرطيين فالتقط صورة، وذهب بالفيلم إلى منير صاحب محل التصوير القريب منه فظهر بالصورة وليد مقيَّد اليدين وشرطي على يمينه وشرطي على اليسار.

وضع مجيد إطارًا للصورة التي كان حجمها بحجم ورقة الفولسكاب وعلَّقها داخل محله –ذاك الذي كان قبلًا محلًا لتصليح أجهزة الراديو– وفي مكان بارز، وأشار عليه بعضهم، أن الصورة لا معنى لها بدون كتابة تؤرخ للحادث أو تعبِّر عنه، فقال مجيد يخاطب الجمع: وماذا تقترحون عليَّ أن أكتب؟ قال بعضهم: «لن ننساك يا وليد، السوق من دونك موحش ونهاره ممل».

أعجب مجيد بالفكرة واستحسنها، لكن الذي زعزعها هو جملة ثانية تذكرها فجأة «دنت الساعة وانشق القمر»، يحبها وليد وكثيرا ما تغنَّى بها، إذًا هي أفضل من أي جملة غيرها..

طلب مجيد من شخص أن يخط له ما أراد، وبعد ربع ساعة كانت الكتابة بخط الرقعة معلقة تحت الصورة ووليد في قيده. بعد أقل من ساعة وقفت سيارة «لاند كروزر» من تلك التي يستخدمها رجال الأمن السياسي، أمام المحل، ظن مجيد أن لديهم راديو كهربائي عاطل يريدون إصلاحه، لكن لا، نزل منها ثلاثة رجال، بانت أطراف فوهات مسدساتهم من تحت ما عليهم من سترات ارتدوها واتجهوا إليه، وما سألوه إلا سؤالًا واحدًا: «ساعة من التي دنت يا ابن الكلب!؟».

شُرفة زيْنب الجزَّار

شاهد جعفر وصديقه عبد الجبار، وكانا مولعين بمشاهدة أفلام هوليوود- شاهدا على شاشة سينما الفرات، فيلم «قصة الحي الغربي» وقد قامت بالدور الرئيس «نتالي وود»، فكانت، بالنسبة إليهما، ممثلة رائعة بكل المقاييس.

قصة الفيلم، صياغة جديدة لمسرحية شكسبير «روميو وجولييت» فالصراع في قصة الفيلم يدور في أحد أحياء نيويورك القديمة، بين شباب من المهاجرين الملونين، وشباب من حي مجاور، لم يكونوا من المهاجرين، المواجهات بينهما وصلت إلى حد التقاتل، أول الأمر بالأيدي، لكن بعد ذلك صار بالأسلحة القاتلة.

دار الصراع بينهم عن طريق الغناء والرقص على شكل مجموعات، فترجمت أغانيهم مشاعر الكراهية ورفضهم للآخر، لكن وسط ذلك كله، نمت قصة حب بين اثنين وكبرت.

في الفيلم مشهد جميل غنَّى العاشق أبيض البشرة لحبيبته ملونة البشرة (ناتالي وود) وكان على طريقة شعراء عصابتين من الشباب الأولى من البيض تحت اسم Jets بقيادة ريف (Russ tamblyn) والثانية من الملونين تحت اسم Sharks بقيادة بيرناردو (George Chakiris) ووصلت الأمور بينهم إلى حد استحالة التفاهم. في إحدى صالات الرقص يلتقي توني

(Richard Beymer) أفضل أصدقاء ريف والمؤسس السابق لجماعة Jets والمتوقِّف عن النشاط حاليًا، مع ماريا (Natalie Wood) الشقيقة الصغرى لبيرناردو، ويتحابان من أول نظرة، ويلتقيان سرًّا، ويخططان للهروب سويًّا. وتقرِّر العصابتان الدخول في معركة أخيرة مصيرية يحسمون فيها صراعهم من أجل السيطرة، ولكن ماريا تدفع توني للتوسط بين العصابتين من أجل إحلال السلام، حفظًا لحبهما، ولكن كانت النتيجة مأساة لماريا وتوني. التروبادور، عندما يقف العاشق منهم تحت شرفة حبيبته معبِّرا لها عن حبه بالعزف على القيثارة وبالغناء، كان المشهد ذاك رومانتيكيًّا أخذ بالألباب، أجمل شرفة كانت وأجمل قيثارة عزفت.

في مساء اليوم نفسه، بعد أن تركا دار السينما خلفهما، توجها إلى «مقهى الجندول»، وكان الليل في أوله.

قال جعفر: ربما ما خفي عليك يا عبد الجبار، أن عبد الحليم حافظ غنَّى للممثلة إيمان في فيلم «أيام وليالي»، «أنا لك على طول خليك ليَّ» على طريقة ما شاهدناه في «قصة الحي الغربي» مع فارق أن عبد الحليم كان جالسًا في الجندول يلاعب أوتار الجيتار، وإيمان الممثلة، تتطلَّع إليه من شباكها في العوَّامة الطافية على ماء النيل.

قال عبد الجبار: ولا تنس محمد فوزي مع ليلى مراد في فيلم «شحات الغرام» فقد غنَّى لها وهي تقف في شرفتها أيضًا.

وأضاف: هذه هي الطريقة التي يجب أن يعبر بها العاشق الولهان عن حبه لحبيبته، وليكن في علمك أن جميع الطرق الأخرى في التعبير عن الحب من قبل المحبين، هي محض هراء.

عندما سمع جعفر كلام صديقه، أخذ بلعن اليوم الذي لم يستطع أن يقف فيه تحت شرفة أو شباك حبيبته، يبث لها ما في قلبه من لوعة وأسى وأحاسيس ومشاعر الغرام.

وقال: كلهم عملوها في الأفلام وما وقف أمامهم أي مانع، إلا أنا، كان عليَّ أن أحذو حذوهم وأعملها مع زينب الجزَّار.

قال عبد الجبار: ومن هي زينب هذه؟ لم أسمعك نطقت باسمها يومًا أمامي، ولا أتيت لها بسيرة.

بعد ساعة وقف جعفر ليغادر المكان على غير عادته، فاستغرب عبد الجبار منه ذلك، فقال: إلى أين يا جعفر، الليل ما زال في أوله، ونحن ما تعودنا أن نغادر سهرتنا مبكرين، ولا تعودنا أن ننام نوم الدجاج؟

عبر جعفر الجسر القريب من مقهى «الجندول» إلى الجهة الأخرى، سار وحيدًا، وقد دارت في رأسه أفكار شتى، لم يزِحها عنه إلا عندما وقف أخيرًا أمام بيت زينب الجزار، و«الجزَّار» ليس لقبًا لزينب، اسمها الحقيقي زينب إسماعيل، إنما هي مهنة أبيها فالتحق باسمها.

ضرب جعفر شباكها العلوي بحصاة صغيرة ناعمة التقطها من الأرض، وانتظر قليلًا، فما جاءت بنتيجة، فالتقط حصاة صغيرة أخرى.

فتحت زينب شبَّاكها فرآها كما لو كانت شرفة قريبة الشبه بشرفة الممثلة ناتالي وود أو «إيمان» في فيلم «أيام وليالي» وهو واقف تحتها لا ينقصه غير الجيتار، يعزف على أوتاره أغنية نجاة الصغيرة التي بدأ يغنيها «دوَّارين في الشوارع، دوَّارين في

الحارات، يا شبَّاكهم يا اللي ضايع عن عينيَّ سلامات»، وقبل أن يعيد على أسماعها المقطع الصغير هذا ثانية، أضاء أحدهم النور داخل البيت، وظهر الأب وقد فتح الباب، رافعًا العصا في كفه اليمنى والساطور في اليسرى.

في اليوم الثاني، في مقهى الجندول، وصل جعفر فسأله عبدالجبار: ما الذي حصل، ورم وكدمة زرقاء اللون تحت عينك اليمنى وجرح في الفك!

قال جعفر: اللعنة على الشرفات التي وقف تحتها شعراء التروبادور، وعلى فيلم «قصة الحي الغربي» ومعه فيلم «أيام وليالي»، واللعنة على جميع شرفات الأفلام الأخرى.

العراقي جيمس بوند

أتيحت الفرصة لمازن بعدما وصل إلى المستوى الرابع/ كلية الهندسة، أتيحت الفرصة له أن يسكن في دار الطلبة الواقع في «باب المعظّم» وسط بغداد. لهذه الدار، بالنسبة لمازن، ميزات متعدِّدة، منها قربها من مكان كليته، خمس دقائق سيرًا على الأقدام، والميزة الأخرى أنه لا يدفع لقاء السكن، إلا مبلغًا زهيدًا أو يكاد يكون رمزيًّا مقارنة بما كان يدفعة قبل السكن في هذه الدار.

لكن فيها مساويئ بالنسبة إليه منها: أن باب الدار الرئيس يُغلق في العاشرة مساءً، وعندما يصل متأخرًا في الليالي التي يذهب فيها إلى هذه السينما أو تلك في شارع السعدون البعيد عن دار الطلبة نوعًا ما، يضطر إلى خلق الأعذارعن أسباب تأخُّره للمشرف المسؤول، إلى أن وصل أمره مع الإدارة والمشرفين إلى طريق يكاد يكون مسدودًا.

يحب مازن أفلام جيمس بوند من تمثيل «شين كونري» ويُعرف بالعميل 007، وجيمس بوند شخصية خيالية لعميل سري بريطاني. وهو دائمًا بطل خارق يتَّبع أسلوب «الغاية تبرر الوسيلة»، دائمًا على استعداد لقتل العشرات إذا كان ذلك يوصله إلى تحقيق الهدف، ولا ينسى المرء طبعًا جمال النساء الساحر، من اللاتي يرافقنه أو يقتفين أثره، أثناء تأدية مهامِّه.

وبسبب أن «مازن» مولَع بهذه الأفلام، ويحب ممثليها وممثلاتها، علَّق على الحائط فوق سريره صورة لـ«جيمس بوند» وهو يمسك بمسدسه الشهير، وهذا أمر عادي بالنسبة إليه، ما دام لا يسبب مشكلة مع أحد ممن يشاركونه الغرفة.

في تلك الليلة كانت الخفارة المسائية لشاب، كان قبل هذا الوقت بسنوات يدرس الفلسفة في جامعة كمبردج ذات الشهرة العالمية، لكنه لم يكمل الدكتوراه فيها، عاد للعراق بشهادة الماجستير، وعيِّن بقسم الفلسفة بكلية الآداب/ جامعة بغداد، وأول تعيينه سكن «دار الطلبة» وكان عازبًا، وبما أن السكن مخصَّص للطلاب فقط، طُلب منه مقابل هذا الاستثناء أن يكون ضمن مجموعة المشرِفين على حضور الطلاب وتأخرهم بعد العاشرة مساء، وكل الذي كان يقوم به هو المرور على بعض غرف الطلاب للاطلاع والتدقيق في الحضور، ومع أنه كان يرى أن عمل المشرف هذا لا يليق به، إلا أنه أدَّى عمله هذا على مضض.

في هذه الليلة دخل المشرف الغرفة التي يقيم فيها مازن فوقع بصره على صورة جيمس بوند، وهناك وقف أمام الصورة المعلقة على الحائط يدقِّق النظر في جزئياتها، أحيانًا تظهر نظرات عينيه الإعجاب بها، وأحيانا تظهر عدم الرضى، بعدها التفت إلى مازن، وسأله:

– هذه الصورة لك؟

قال مازن: نعم هي لي.

قال: اتركنا من موضوع أن هذا الممثل مشهور يعرفه القاصي والداني، وأن ليس فيها عيبًا أخلاقيًّا، لكني أرى أن ترفعها من مكانها وبالسرعة الممكنة، لئلا يسلخ جلدك دباغ الجلود.

قال مازن: وما سبب أني أرفعها من مكانها؟

قال المشرف: يا أيها الفاضل، لا يوجد في العراق إلا جيمس بوند واحد، ساحة العراق من شماله إلى جنوبه كلها له، وتعليقك هذه الصورة على الحائط يعني أنك تقرُّ وتعترف أن هناك عندنا جيمس بوند آخر منافس له، إذا كان عندك جلد للاحتياط، دعها معلَّقة في مكانها، وإذا لم يكن عندك، كن مؤدبًا وحبَّابًا وارفعها، يا أيها الفاضل، من مكانها.

رسالة إلى موزِّع البريد

بواسطة موزِّع البريد «كاظم»،كانت خدمة البريد في مدينتكَ لا تقل دقة وانضباطًا عنها في أي بلد متقدِّم، هناك على المرء أن يكتب اسم الشخص واسم الشارع ورقم البناية أو المنزل ثم الرمز البريدي للمدينة واسمها ثم يضع الطابع على الظرف، تصل رسالتهَ إلى من بعثها مئة بالمئة، وفي أقصى سرعة، ومن دون ذلك لا تصل.

في مدينتك تصل الرسالة إليك من دون تلك التفصيلات على الظرف، يكفي فقط: اسم البلد، واسم المدينة، وتحتها اسم المرسل إليه، لماذا؟ لأن كاظم موزِّع البريد قد عرفك معرفة الخبير الذي لا تفوته شاردة أو واردة، من خلال عدد الرسائل التي تصل إليك بين فترة وأخرى.

مرة وصلتك رسالة، على الظرف كتب وبالإنجليزية: العراق/ بابل وبعدها اسمك، هذا كل ما على الطرف، فأوصلها كاظم موزِّع البريد لك، لكن، ليس كما اعتاد إيصال رسائلك إلى البيت، بل سلمك إياها يوم وصولها في مقهى «الجندول» التي اعتدت الجلوس فيها عصرًا، لإحساسه أن تلك الرسالة مهمة بالنسبة إليك.

دعوتَ كاظم للجلوس معكَ في الجندول، وبينما هو يشرب الشاي الذي طلبتَه له، قال بنوعٍ من الأسف: هل تعلم أني أوصل

الرسائل للناس منذ عشرين عامًا وأنا لم أتسلَّم يومًا رسالة باسمي، ولا كتبتُ واحدةً إلى أحد!

في اليوم التالي قبل الظهر كنتَ في مبنى «دائرة البريد والبرق» القريبة من مركز المدينة، وعند طاولة صغيرة جلستَ، أخرجتَ قلمًا وورقة وظرفًا من حقيبتك، وفي الورقة كتبتَ:

أخي كاظم/ تحية معطَّرة برائحة الورد/ تهمُّني رؤيتك كل يوم/ أنت نافذتي التي أطل منها إلى العالم/ تحياتي لك ولعائلتك الكريمة فردًا فردًا ودُم بخير لمحبيك.

ثم كتبتَ اسمكَ وتحته توقيعكَ.

طويتَ الورقة وأدخلتها الظرف وأحكمتَ غلقه. كتبتَ عليه: «من مدينة الحِلّة وإليها»، تحتها كتبتَ: إلى دائرة البريد والبرق.

وتحتها: إلى موزع البريد كاظم حسوني المحترم.

وفي أسفل الظرف كتبتَ: شكرًا لساعي البريد الذي يوصل له هذه الرسالة.

بعد أن تأكدتَ أن كل شيء تمَّ بشكل صحيح وكامل، اشتريتَ طابعًا من شباك بائع الطوابع البريدية، ألصقته في الزاوية اليمنى العليا.

قبل أن تُدخل الظرف في فتحة الصندوق الأحمر الذي كان خارج مبنى البريد، رأيتَ «كاظم» قادمًا ليدخل دائرة البريد والبرق، سلمتَ عليه وصافحته، ثم دفعتَ بالظرف إلى داخل الصندوق الأحمر.

ديك وديك

كان عددُ الأفراخ عشرة عندما جلبتهن معي إلى البيت، لكن الأقدار لم تعطِ فرصة الحياة الا لخمسة منهن، أربع دجاجات وديك واحد، له عرف أحمر كبير يهزُّه عندما يجعل دجاجاته يأتمرن لأمره أو يغضب، أما ألوان ريشه فبعضها يبدو أشد لمعانًا عندما تسقط عليه أشعة شمس ما بعد الظهر.

في البداية كان صياحه عند الفجر مصدر إزعاج لي، لأن شباك غرفتي يطل على الحديقة، التي هي ملعبه، يصول فيها ويجول، ما رأيت مثله ديكًا نشيطًا من قبل. كانت حديقة منزلنا جنَّة له ما بعدها جنة، أخذها طولًا وعرضًا والدجاجات تحت جناحيه، نابشًا بأظفاره الأرض، وهن قانعات برعايته التي ما بعدها رعاية، يفعل بهن ما يشاء، أليست الدجاجات دجاجاته! أليس هو وحده المسؤول عن تنفيذ طلباتهن ورغباتهن وحمايتهن، كنَّ يقدِّرن حنانه هذا وهن في كنفه، إلا تلك الدجاجة بنيَّة اللون، كانت تريد منه حنانًا أكثر من صويحباتها، تريد أن تكون محظيته المفضلة، وبالفعل نالت هذه ما تريد من الديك، لأنها لم تجد من تردعها وتوقفها عند حدها، وتفهمها على طريقة الدجاج، أن الديك ديكهن جميعهن وليس لها وحدها، فما من حقها الانفراد به.

مع الأيام، علا الديك وارتفع وأصبح شرسًا وعدوانيًّا، فالويل لمن يقترب من دجاجاته، وصار يهاجم ويضرب بمنقاره الأطفال، إن اقتربوا منهن، قبل الكبار.

في يوم طلبت أمي أن أضع نهاية لشراسة ديكي هذا، قبل أن تصل ضربة منقاره إلى عين أو حاجب أحد إخوتي الصغار، حينها لا تجدي لومة اللائمين نفعا.

قلت: ما العمل؟

قالت: نذبحه.

قلت: اتركيني أفكر فالأمر ليس سهلًا.

في اليوم التالي كان قرار موافقتي صعبًا عليَّ. عند الظهر أضربت عن الطعام، عندما رأيت لحمه مشويًّا على مائدة الطعام.

**

في فجر اليوم الثاني، فتحت عينيَّ على صياح ديك، لكن الصياح كان صياح ديكي وهذا شيء غير معقول لأنه انتهى في بطون القوم، قلتُ في نفسي: هذه أضغاث أحلام. لكن لا، الصياح نفسه، تكرَّر وتكرَّر.

خرجت إلى الحديقة فرأيت ثلاث دجاجات وليس أربع يمشين تحت جناح ديك، فمن أين جاء، وأي قدر بعث به إلى هنا! دققت النظر، عندما رأتني الدجاجة البنِّية صاحت، تأكدت أنها صاحبة الصوت، دققت النظر أكثر، تأكدت أن عرفها لم يعد عرف دجاجة، قد كبر وعلا قليلًا فصار عرف ديك، رأيته يهتز مع حركته المتبخترة بعد أن دفع صدره للأمام، ما عاد هناك دجاجة بنية اللون بل ديك حقيقي، بلون بني.

ما عاد هناك أي مبرر لكي يحافظ على سر أنه ديك وليس دجاجة، كان بوجود الديك القوي ما أخذ فرصته في الإعلان عن نفسه، فاقتنع أن يكون دجاجة!

غاب الديك الآن، فجُلْ في حومة الميدان، الدجاجات الآن دجاجاتك؟

نابليون وزيْنب

بعد أن دقَّ الجرس، دخل الطلاب إلى صفوفهم ولحق بهم مدرسوهم. كان المدير وراء مكتبه والأستاذ جعفر لم يغادر مكانه في غرفة الإدارة، فوفق ما هو مكتوب في جدول الدروس المعلَّق على اللوحة عنده استراحة، لذلك اغتنم الفرصة ليكمل مع المدير حديثًا كان بدأه البارحة.

قال: لا تتصوَّر أن صورة كرستوفر كولومبس البحَّار الذي اكتشف قارة أمريكا، تنمحي من ذاكرتي، ولا تتصوَّر أن صورة نابليون بونابرت وخصلة من الشعر نازلة على جبهته، وكفه اليمنى دون الإبهام مندسَّة في قميصه، تنمحي أيضًا، لا تتصور أن صورة جيفارا المشهورة تفارق خيالي، ولا تتصور أن مارلين مونرو الخجول، بتنورتها الطائرة في الهواء، أنساها يومًا.

كان الأستاذ جعفر عازمًا على قول المزيد، لكن الطالب الذي دخل الغرفة أوقفه عن الكلام، قال الطالب للمدير:

– يا أستاذ عندنا الآن درس تاريخ والأستاذ لم يأتِ هذا اليوم، هل تأمرنا نخرج إلى الساحة أم نمكث جالسين في الصف ولا نغادر مقاعدنا؟

بالنسبة إلى المدير، أيًّا من الخيارين مرّ، لأن ضوضاء الطلاب وصخبهم واستهتارهم في الصف ستؤثِّر على سير التدريس في الصفوف الأخرى، لذلك قال للأستاذ جعفر:

– ما رأيك، تشغل ساعة هذا الدرس إذا لم يكن لديك مانع؟

قال الأستاذ جعفر للطالب: أين وصلتم في مقرَّر التاريخ؟

قال الطالب: الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون.

قال: اذهب، أنا قادم إليكم حالًا.

في الصف قال الأستاذ جعفر: لن أحدثكم عن الحملة الفرنسية على مصر لأنكم درستموها بالتأكيد وأخذتم فكرة عنها، ولن آتي لذكر حروب نابليون اللاحقة، لأن مدرسكم أولى بتدريسها، لكن أريد التطرُّق إلى شيء آخر امتاز به نابليون، وربما ذلك الشيء لا وجود له في مقرركم.

تخطَّى الأستاذ جعفر في المسافة الفاصلة بين رحلات الطلاب والسبورة مطرقًا برأسه، تعمَّد بعدها أن يرفعه بنوع من القوة، فنزلت خصلة من شعره الأسود الناعم على جبهته، وربما هذا ما أراد أن يحصل، فارتاح لهذه الحركة، وعندما رفع يده لتدخل أربعة من أصابعه بين زرّين في قميصه، انبسطت أساريره، وقال محاولًا أن يبدو أكثر طولًا وقد دفع بكعبيه إلى الأعلى قليلًا:

– لم يمنع نابليون الذي كان أقصر من كثير من جنوده أن يكون أكبر قائد للجيوش في التاريخ، والشيء الأهم، وهذا ما لا تعرفونه، أنه كان يملك قلبًا رقيقًا حانيًا، فهو من كتب أجمل رسالة حبٍّ إلى جوزفين، لم يكتب مثلها كثير من الشعراء في الشرق والغرب، ولا حتى نزار قباني كتب مثلها.

ازداد الطلاب سكينة فقال بعضهم: احكِ لنا هذا يا أستاذ، احكِ.

قال: هذا الإمبراطور الذي قاد أعظم المعارك وانتصر فيها، له جانب آخر في شخصيته هو الجانب العاطفي وقد كتب إلى حبيبته

جوزفين: «لا يمر يوم دون أن أحبك، ولا تفوتني ليلة دون أن أضمك إلى صدري وأطوقك بين ذراعيَّ، لا أتناول الشاي دون أن ألعن المجد الذي يبعدني عنك يا روح حياتي، في خضمِّ أعمالي وعلى رأس جيشي تشغلين يا معبودتي زينب وحدك أفكاري وخُططي وعقلي».

ارتفع صوت بعض الطلاب: يا أستاذ، هل كان اسم معبودته جوزفين أم زينب؟

قال الأستاذ جعفر: وهل قلت زينب! هذا مجرد سهو مني، انسوه، ولنتابع ما قاله نابليون في الرسالة: «يا حبي، لماذا لم تحافظي على حبي، فتركتِني ورحت إلى غيري، فوداعًا يا عذابي وروح حياتي وأتمنَّى أنك ما نسيت أيامنا الحلوة التي ما تفارقنا فيها، عندما جمعتنا الأيام في كلية التربية، في مكتبتها وزواياها».

صاح بعض الطلاب: وهل درس نابليون في كلية التربية؟

قال الأستاذ جعفر وهو يحرك رأسه بقوة لتنزل الخصلة على جبهته أكثر: وهل قلت إنه درس في كلية التربية! هذا سهو مني، انسوه.

بيريه جيفارا

فهم جيفارا أنه وصل إلى الطريق الذي لا يفضي إلّا إلى نهايته، بعدما اندفع جنود بوليفيا بكامل أسلحتهم القتالية وأحاطوا بالوادي الذي كان مقرا لعملياته.

أصابت الرصاصة الأولى التي سددت إلى ساقه فهشَّمت عظمها، أما الثانية فقد حوَّلت بندقيته إلى حطام.

قاده الجنود إلى مدرسة مهجورة في قرية «لاهيغويريا» فاستطاع هناك أن يرى جثث رفاقه تراكمت فوق بعضها في ساحة المدرسة. في تلك الأثناء لم يكن العقيد «خواكين زينتينو أنايا» الذي قاد الحملة العسكرية ولا عميل وكالة المخابرات المركزية المعروف باسم «فيليكس رودريغيز» الذي حضر بسرعة تفوق سرعة الضوء، يعرفان شيئًا عن كيفية التعامل معه، هل سيُقتل أم سيُحاكم أم يتم إرساله إلى مكان سرِّي للاحتفاظ به. كانا ينتظران الأوامر أن تأتي من هناك ليتدبرا الأمر، بينما جيفارا قد تُرك مطروحًا على أرض صف في المدرسة.

عندما تبيَّن الخيط الأسود من الخيط الأبيض في اليوم التالي، وصل أمر تنفيذ الإعدام صادرًا عن الرئيس البوليفي نفسه، تلقاه أولًا عميل المخابرات ذاك.

كان تشي حينها ينزف دمًا لم يتوقف، دخل عليه رودريغيز شفرة وأخبره: إنك يا جيفارا، قاب قوسين أو أدنى من الموت.

ولأن عميل المخابرات لا يريد أن تضيع الفرصة من يده وهو العارف والخبير بأهمية هذا الرجل وانتشار اسمه والصدى الذي سيخلفه السماع بموته، طلب من الجنود معه أن يتركوه وحده مع تشي، حينها سحب البيريه من رأسه قائلًا: معي ستكون البيريه في مأمن.

دس البيريه في جوربه، وأنزل عليها طرف أسفل بنطلونه، وخرج من الصف المدرسي.

تطوع الرقيب «ماريو تيران» لتنفيذ الحكم، أشرف عليه العقيد «خواكين زينتينو أنايا» قائد الحملة بينما انسحب «رودريغيز» إلى السيارة العسكرية التي أوصلته، ليضع البيريه في مخبأ لا ينوشه أحد، ولا حتى الرئيس البوليفي «رينيه بارينتوس» الذي سارع بالمجيء بنفسه للتأكُّد من تنفيذ الإعدام فجيفارا في رأيه، رغم أنه عدوُّه، رجل ولا كل الرجال، رجل بسبعة أرواح.

في منزله في فلوريدا، سارع «رودريغيز» بإخفاء البيريه في زاوية خزانة لا تصل إليها يد زوجته التي تضع أناقتها على رأس أولوياتها، لكنَّها وصلت بمصادفة إليها، عندما كانت تجمع من خزانة زوجها وخزانتها، كما في كل عام، ملابس وأغطية، في رأيها، ما عادت تصلح للاستعمال، تجمعها في كيس كبير من البلاستيك وتتصل بعدها بالهلال الأحمر ليأخذوا الكيس ويتصرَّفوا بما فيه، وقد استغربت من زوجها طبعه في احتفاظه أحيانًا بأشياء غريبة فترميها دون أن يأخذ باله من اختفائها، هذه المرَّة، استهجنت في سرِّها أن زوجها أخفى بيريه تنبعث منه رائحة غير مقبولة، وعليه بقع من دماء تيبَّست، وأصبح لونها قاتمًا.

وقع ذلك «البيريه» في يد من كان يفرز قطع الملابس ويصنِّفها في الهلال الأحمر، فاستغرب كيف يكون هذا البيريه المتسخ بينها، لكنه أعجب بالنجمة الخماسية التي شدَّت بحزم في مقدمة البيريه، بشكلٍ لا يمكن انتزاعها إلا بقوة، حاول أكثر فأكثر.

صارت النجمة الخماسية عنده، لكن انتزاعها ترك أثرًا صغيرًا، أو ثقبًا لا يستحق أن يحاول معه المرء إصلاحه، ليعيد إليه بعضًا من البهاء الذي كان فيه.

كل مجموعة من الملابس تأخذ طريقها إلى الماكنة التي تحزمها بغلاف من قماش الخيش، والماكنة نفسها تخيطه، لكن ماكنة أخرى هي من تقوم بلف السيور المعدنية حولها، فيصبح ترحيلها جاهزًا. ومن قام بكل ذلك العمل لا يعرف بالضبط، إلى أي من دول العالم الثالث ستبعث الإرسالية.

**

كان سامر يبحث عن قميص من تلك القمصان التي تعطي انطباعًا أنها مستوردة، قلَّب الكثير من القمصان لكنه ما وجد بعد الذي يلبِّي طلبه، أثناء ذلك عثر بالصدفة على «بيريه» نظيف ومعتبر.

اعتبر سامر أن عثوره على البيريه فأل حسن لمستقبله ككاتب مسرحي، أحب سامر المسرح وقرأ لكثير من كتَّاب المسرح في الشرق والغرب وبشكل خاص للكاتب توفيق الحكيم وأعجبته مسرحية «أهل الكهف» جدًّا.

بحث جادًّا عن بيريه يشبه ذاك الذي على رأس توفيق الحكيم، لكن الأسعار لم تشجعه على شراء واحد، أما في هذا المكان «سوق

البالات» في منطقة الباب الشرقي وسط بغداد، فإن أصحاب الدخل المحدود ينعمون بالبضاعة المستوردة في بالات، اشترى سامر قميصًا، جرَّبه فكان كما لو الصانع فصَّله له، وجرب البيريه، فاشتراهما أيضًا.

بعد يوم أو يومين، وضع البيريه على رأسه بالطريقة التي يضع بها توفيق الحكيم البيريه على رأسه، وأراد أن يخرج إلى الشارع، لكن شيئًا ما منعه من الخروج والبيريه على رأسه، أنزله محاولًا أن يقنع نفسه أن الثقب في مقدمته لا يلفت انتباه أحد، لكنه فشل في إقناعها.

لم يبق له إلا أن يعطي البيريه لأخيه الأكبر الذي يعمل أجيرًا في محل لتصليح ميكانيك السيارات، فهو لن يقلب فيه وسيضعه في العمل على رأسه، سواء كان البيريه بثقب أم من غير ثقب.

حفلة الموز

إذا أردت أن تمتِّع نظرك وتزيد أو تقوِّي من شحنة إقبالك على الحياة، فما عليك إلا أن تمعِن النظر في «التفاح اللبناني» الذي يعرضه «أبو ناصر» في محله، على يسارك قبل أن تدخل شارع المتنبي ظهرًا لتذهب إلى «مطعم الإخلاص».

التفاح عند «أبو ناصر» غير التفاح المعروض في المحلات الأخرى، لطالما أدهشك لمعان قشرته سواء كانت حمراء أو صفراء، أما عذق الموز الذي أنزله بواسطة حبل من القنَّب أمام واجهة المحل، قد تضربه بمقدمة رأسك وأنت تمر على الرصيف، فله حكاية، الموز غير متوفِّر إلا في أماكن معينة، وسعره لا يقدر عليه إلَّا قلَّة من الناس.

إذا خطر لك أن تسأل أبا ناصر عن سعر الكيلو لأي من الفاكهة التي يعرضها فإنه يتمعَّن فيك أولًا ثم يجيبك وهو لا ينظر إليك قائلًا: هذا ليس من أكلك. ربما له الحق في ذلك، لأن زبائنه لا يسألونه عن سعر هذا أو ذاك من الفاكهة. يزن لهم ما طلبوه، بعدها يسألونه عن السعر.

وصلتك بعض الأخبار: أن نوري السعيد رئيس وزراء العراق قبل سقوط الحكم الملكي 1958، كان من زبائنه، وقد شاهده كثيرون يوقف سيارته أمام محله، بعدما ينزل منها، يسلِّم على

أبي ناصر ويطلب منه أن يزن له كيلو من هذا وكيلو من ذاك، ثم يعطي حساب مشترياته دون أن يسأل عن الأسعار، ومع السلامة.

من زبائنه أيضًا: عبد الرحمن عارف رئيس الجمهورية العراقية قبل انقلاب حزب البعث على حكمه في 1968، وقد أتى مرارًا يوم الجمعة، يوم عطلته، ليجلس في تلك المقهى الواقعة أمام محله تقريبًا، في الجهة المقابلة من شارع الرشيد، وليس في حمايته غير مفوَّض في الشرطة، ولا أحد غيره، اشترى منه مرة دون أن يسأل عن سعر كيلو التفاح أو البرتقال وغير ذلك، ومضى.

بعد أن تناولتَ طعام الغداء في مطعم الإخلاص فكَّرتَ في زيارة الأصدقاء، وهم يقيمون هنا، في شقة تقع في البناية المجاورة للمطعم، ومن المؤكد أن أغلبهم عاد الآن من أكاديمية الفنون أو من الكلية التي يدرس بعضهم فيها.

في داخل الشقة دار الحديث حول «أبو ناصر» بائع الفاكهة لأنه قال لأحدهم اليوم قبل مجيئه للشقة: «هذا ليس من أكلك». عندما سأله عن سعر الموزة الواحدة.

أثناء الحديث عن أبي ناصر، قام «مثنّى» إلى المطبخ، أخذ شيئًا أخفاه في جيبه، ومن دون سؤال ولا جواب، غادر الشقة.

بعد أقل من عشر دقائق عاد مثنى وهو يسند عذق الموز، بطوله وعرضه، إلى صدره، فعقدت الدهشة لسان الجميع أول الأمر، ولكن بعد أن تفهَّم الجمع الوضع، هاجوا وماجوا: كيف حصل ذلك يا مثنى؟

قال: الفضل لهذه السكين، هي التي قطعت حبل القنَّب في ضربة واحدة، لم تعطِ أبا ناصر فرصة لتبين أن عذقه المدلَّى

من فوق متبخترًا أمام الناظرين، قد اختفى من الوجود. تعالى الضحك وانتشر المرح الممتلئ بالكلام، وكانت حفلة أطلقوا عليها (حفلة الموز)، عذق الموز في وسط الجلسة وهم يقشِّرون ويغنون مختلف الأغاني: افرش منديلك ع الموزه/ وأنا الف وأجيلك ع الموزه.

وأغنية عبد الحليم حافظ: يا مالكًا موْزي.

وأغنية نجاة الصغيرة: أيظن أني موْزةٌ بين يديه.

يكره سليم حرف السين

يكره سليم حرف السين أكثر من كرهه لإسرائيل، يحب سليم روايات إحسان عبد القدوس، لكنه يكره حرف السين في عناوينها: النظارة السوداء، لا ليس جسدك، الطريق المسدود، نسيت أني امرأة، دموعي ودمي وابتسامتي، بنت السلطان. كل يوم يقف سليم أمام المرآة ويصرخ: أنا أكره حرف السين، أكرهه، أكرهه (كان ألثغَ يلفظ السين شينًا).

جاء سليم إلى مقهى الجندول، وما سبق أن جاء من قبل ولا رآه أحد مرَّ عليها، كان عبد الجبار عباس حاضرًا وعلي بيعي موجودًا وآخرون.

جاء سليم إلى الجندول، سلم على الجميع وعرَّف بنفسه وقدَّم كلمة الفنان على اسمه، بعدها قال لعلي بيعي:

رجاء أشتاذ، أريد التكلم معك على انفراد.

قال علي: تتكلم معي وعلى انفراد!

قال سليم: نعم، لو شمحت.

في مكان ليس بعيدًا جلسا لوحدهما، قال سليم: أشتاذ علي، أنا صوتي رخيم ومدى طبقته واشع وعريض، وللميزات التي يتمتع بها صوتي أطلق عليَّ القريب والبعيد من أصدقائي، والقريب والبعيد من أقربائي لقب «أبو كلثوم» لأني برأيهم أفضل من يقلد

صوت كوكب الشرق أم كلثوم وإذا وضعتني موضع المقارنة مع غيري ما يشتطيع أحد أن يصل إلى نصف ما عندي من إمكانية وموهبة، وأريد منك يا أشتاذي أن تأخذ بيدي، تكتب لي أغنية، تعطيها لصديقك الملحن الذي لا يشق له غبار «كوكب حمزة» يلحنها، كما فعل مع المغني حشين نعمة عندما لحن له أغنية «يا نجمة» فذاع اشمه وانتشر في الآفاق، ومثلما فعل مع المغني شعدون جابرفي أغنية «يا طيور الطايرة» فاشتهر وصار اشمه على كل لشان، وأنا لشت بأقل موهبة منهما.

وأضاف: تريد أن تشمعني أغني لك «شيرة الحب» لأم كلثوم، أو «لشَّه فاكر». وإذا كانت أغاني كوكب الشرق لا تعجبك أغني لك للمطربة نجاة الصغيرة أغنية «شاكن أصادي وباحبه».

قال علي بيعي: «شيرة الحب» يا سليم، «شيرة الحب»!؟ ما ينفع يا أخ سليم ما ينفع.

كره سليم حرف السين، وقف هذا الحرف حاجزًا بينه والاعتراف بموهبته في الغناء. فكر سليم، وما نام تلك الليلة من كثرة التفكير، أن يجد حلًّا لهذا الموضوع، أن يبحث عن كلمات ليس فيها حرف السين وهذا غير ممكن، أن يدرِّب نفسه على نطق حرف السين إلى أن ينطقه صحيحًا وهذا ما لا يقدر عليه، فما العمل؟

في اليوم الثاني جاء إلى مقهى الجندول، كان عبد الجبار عباس موجودًا وما كان علي بيعي هناك فقال لعبد الجبار: جئت اليوم من أجلك.

ومباشرة دخل في موضوعه: أشتاذ عبد الجبار، أنا أكتب القصة وموضوعاتي رومانشية، وقد أطلق عليَّ أصدقائي لقب

«نجيب محفوظ محلَّة وحارة المهديّة»، قرأت ثلاثيته جميعها وأعجبني منها «الشكريَّة» وقرأت له رواية «الشراب»، وقال: يعجبني إحشان عبد القدوش.

قال عبد الجبار: تقصد إحسان عبد القدوس؟

قال: قرأت له: «النظارة الشوداء» و«الطريق المشدود» و«بنت الشلطان».

قال عبد الجبار: تقصد بنت السلطان؟

قال: أريد أن تأخذ بيدي أشتاذ عبد الجبار، تختار مما كتبتُ شيئًا وتشلمه لصديقك عبد الرحمن الربيعي شكرتير تحرير مجلة الأقلام لينشرها فأشتهر لأني لشت بأقل موهبة من الذين ينشرون في مجلة الأقلام.

قال عبد الجبار وهو يطلق حسرة: ما ينفع أخ «شليم» ما ينفع.

كل يوم يقف سليم أمام المرآة، يقول ممتعضًا: أنا أكره حرف الشين (يقصد السين) أكرهه أكرهه.

ما نال اليأس من سليم، ما كتب علي بيعي له قصيدة غنائية ليلحنها كوكب حمزة، وما ساعده عبد الجبار عباس في نشر بعض كتاباته في مجلة الأقلام، فما سمع منهما غير: ما ينفع يا سليم ما ينفع. وهذه في غير صالحه.

جاء سليم إلى مقهى الجندول ثانية فقال قاسم محمد: للأسف يا سليم ما وصل عبد الجبار بعد ولا وصل علي بيعي.

قال سليم: ما أتيت إلا من أجلك، شاعدني وأعنِّي أعانك اللّه، أعرف أنك ضليع في الكتابة الشياشية، اكتب لي خطابًا حماشيًّا، خطابًا ضد إشرائيل.

قال قاسم: أكتب لك خطابًا ضد من!؟

قال سليم: ضد إشرائيل.

قال قاسم: ما ينفع يا سليم ما ينفع.

كانت حرب السادس من أكتوبر 1973 على أشدِّها عندما جاء سليم إلى الجندول، عبر الجيش المصري قناة السويس وحطم أسطورة دفاعات خط بارليف، على طول الشاطئ الشرقي للقناة، وما عاد الانتصار الكامل على إسرائيل إلَّا قاب قوسين أو أدنى. ولكن أحدثت إسرائيل ثغرة في صفوف الجيش المصري، عرفت بـ«ثغرة الدفرسوار» وسرعان ما طوَّقت الجيش الثالث المصري بالكامل، ووصلت زحفها إلى طريق السويس– القاهرة.

أربكت الثغرة الشارع العربي فخرجت مسيرات احتجاج ضد إسرائيل، من ضمنها المسيرة التي انطلقت من محلة وحارة «المهدية» والمناطق المحيطة بها، تجمَّع الناس أولًا في السوق الكبير ومنه انحدروا إلى مركز المدينة.

انطلق سليم مع المسيرة، وصاح وهو في وسطها: ارفعوني لأهتف، ارفعوني لأهتف.

رفعه شخص على كتفيه فارتفع صوته عاليًا: تشقط إشرائيل. وصاح ثانية: تشقط إشرائيل.

وانتظر أن يعيد القوم من بعده ما هتف به، لكن ما ردَّد أحد ذلك الهتاف، لماذا؟ سأل نفسه، ألم يسمعوه؟ أو ربما صوته لم يعجب الجماهير الغاضبة! فنزل أو ربما أنزلوه، في تلك اللحظة تلقَّى سليم ضربة أطارت الشرر من عينيه وسمع من قال: «إشرائيل» يا ابن الكلب! يا مندسّ، تضحك علينا! بعدها يمكن تقول لنا بالعبري «شالوم».

ما عاد سليم يقف أمام المرآة ويقول: أنا أكره حرف الشين (السين)، أكرهه، أكرهه.

فتح سليم محلًّا لبيع السندويتش أمام سينما الجمهورية، أسماه «سندويتش السلام»، لطالما سمعه المارة ينادي على بضاعته: شندويتش الشلام، تفضلوا إخواني، شندويتش الشلام.

حصان المعارك

وضع المعلم صورة الحصان أشقر اللون على السبورة وسأل طلابه: ما هذا الذي أمامكم؟

قال الطلاب جميعهم: هذا حصان.

قال: أحسنتم. وسأل: ما نوع الحصان؟

بدت الحيرة على وجوههم الصغيرة فقال: لا تحتاروا. كان صوت المعلم عاليًا كما لو كان يخطب في حفل جماهيري وليس أمام طلاب صغار. قال: هو حصان عربي أصيل. وسألهم فورًا: لماذا هو أصيل؟

سكت الطلاب فقال: أصيل لجمال هيأته وتناسب أعضائه ولرشاقة حركتة ولسرعة جريه ولذكائه وإخلاصه.

سكت المعلم منتظرًا ردَّ أفعالهم فما رأى غير نظراتهم في وجهه، فتابع: هذا الحصان بلونه الأشقر أبلى بلاءً حسنا أيام السلم وأيام الحرب، من منكم يضرب لي مثلًا عن استخدامه في السلم؟

قال أحدهم: تركبه أنت يا أستاذ وتتجوَّل به في ما حولنا من بساتين وحقول.

قال: أنت شاطر، أريد مثلًا غيره.

قال طالب: يركبه الأستاذ مدير المدرسة ويوصله إلى بيته في مدينة «الحلة» القريبة من قريتنا.

قال المعلم: ممتاز، والآن نأتي إلى من يركبه في الحرب؟ قال الطالب نفسه: يركبه عنتر بن شداد يا أستاذ.

قال المعلم: هذا في الزمان القديم، أريد معرفة من يركبه في الحرب الآن؟

قال طالب: يركبه «الشمر» الذي قتل الإمام الحسين أيام محرم الحرام.

قال المعلم: هذا في التشابيه والتمثيل لمعركة الطف.

احتار التلاميذ فقال لهم: لا تحتاروا أنا أقول لكم: لا يقبل الحصان العربي الأصيل أن يركبه إلا من هو أهل له، وإلا فإنه ليس بحصان عربي أصيل، فالحصان أمامكم على السبورة لا يمكن أن يركبه إلا السيد النائب صدام حسين، وهو الآن راكبه وينتظر ومن خلفه الشعب بانتظار ساعة الصفر ليتقدَّم إلى فلسطين يحرِّرها من طغمة الصهاينة.

قال الطلاب: ولماذا هو واقف ينتظر ولم يتحرك إلى الآن يا أستاذ؟

قال: طبعًا ينتظر! أوَ تقبلون أن السيد النائب يحارب امرأة؟

قال الطلاب: لا، ما نقبل، لكن من هذه المرأة؟

قال: جولدا مائير رئيسة وزراء العدو الصهيوني (من 1969–1974) ولو فعلها السيد النائب فهذا ليس من شيم الفارس، انتظروا قليلًا فسيرى كلٌّ منكم ما الذي سيحصل عندما يجيء بعدها في الحكم رجل من رجالهم، واللّه سيحرقها السيد النائب لإسرائيل حرقًا وهو راكب على حصانه العربي الأصيل هذا وبيده البندقية البرنَوْ.

استمع المدير لكل ما قاله زميله، فقد كانت غرفته مجاورة لذلك الصف، وفي الاستراحة قال له المدير: هل تعرف أن هناك مديرًا لمدرسة ما، سيطير من مكانه وأنك ستجلس في مكانه؟

قال المعلم: ومن أين جاءك هذا الخبر المفرح؟

قال المدير: من الحصان العربي الأصيل، فهو ما أخطأ يومًا في نقل أخبار المعارك.

بنطلون حامد الهيتي

تناول حامد الهيتي فطوره وما دخَّن، فالسيجارة ما ألذَّها وهو يخرج من البيت، يقف خمس دقائق أو هكذا يدخنها برويَّة، أمامه شارع الهيتاويين، وقد يردُّ السلام لهذا أو ذاك من المارة أو الجيران.

قبل أن يخرج لبس بنطلونه الجديد وقد أعجبته، قبل هذا، خطوطه المتقاطعة والمتداخلة، وأعجبته ألوانه القريبة من بعضها، عندما يلبسه الآن ويخرج، سيكون سعيدًا جدًّا وهو يدخِّن سيجارته.

في الخارج وقف يدخن، سعل عدة سعلات سمعها كلُّ من مر في الشارع تلك الساعة. لاحظ حامد، وهو بعد لم ينتهِ من تدخين سيجارته، النظرة الجانبية للشاب الذي تمهَّل وهو يعبر من أمامه، سار الشابُّ خطوات ثم عاد، لم ينظر إليه شخصيًّا بل إلى بنطلونه، نظر وتمعَّن وقاس ودقَّق، وما كان عند حامد أي تفسير لهذا التصرف.

قال الشاب: مرحبًا أستاذ.

قال حامد: أهلا بك، تفضل.

قال الشاب: أرجو ألا يزعجك سؤالي.. هل هذا البنطلون الذي أنت تلبسه أمامي الآن، هو بنطلونك؟

قال حامد: بنطلوني بالطبع!

قال الشاب: وهو عندك منذ أيام كنت صغيرًا في الابتدائية؟

قال حامد: لم أفهم، ما عرفت قصدك!

قال الشاب: وأنا في الابتدائي، كان عندي بنطلون قماشه نفس هذا القماش وخطوطه نفس هذه الخطوط، لكن للأسف، اختفى بنطلوني من على حبل الغسيل، ومن ذلك اليوم وإلى الآن، أبحث عنه فما اهتديت إلى طريقه.

قال حامد: تقصد أنك بعد هذه السنين وجدته الآن؟

قال: يا أستاذ، لم أقصد أنك أخذته من على حبل الغسيل وإنما هو وصل إليك وأنت صغير، بطريق الخطأ، فكبر عندك ونما في عزك، أنت تكبر وهو يكبر معك.

قال حامد: ما أخذتُ بنطلونك من على الحبل، إنما هو طار وارتفع فتلاعبت به الرياح إلى أن وقع بين يديَّ، وما عرفت صاحبه، ولو عرفته لأرجعته بالطبع.

قال الشاب: حمدًا للّه أن بنطلوني وقع في يد شخص مثلك، قل ظهر الحق وزهق الباطل، اللّه أكبر.. اللّه أكبر.

خلع حامد الهيتي البنطلون، والسيجارة بين شفتيه، فما بقي فوق صندله غير لباسه القطني القصير، وبعد أن سلَّم البنطلون لصاحبه، سحق عقب سيجارته وعاد من حيث أتى.

أنا وأنت

في معرضه الشخصي الأول عرض حامد الهيتي، ضمن ما عرض، لوحة اسمها (أنا وأنت)، تميَّزت عن لوحاته الأخرى بمتانة البناء وحرارة اللون. على يمين منتصف اللوحة تلك، لك أن تنظر إلى ما يوحي بوجود غزالة، تنظر إلى أغصان الغابة المتشابكة على اليسار، الغزالة جالسة إلا أنها رفعت أذنًا لمصدر الصوت، وتوقَّفت عن مضغ ما كانت تلوكه، ربما سمعت نداءً ما من وراء جذوع الشجر.

اصطاد حامد هذه اللحظة قبل استجابتها للنداء ذاك وانسحابها، سجَّل حامد المشهد في لوحته. لكن السؤال: هل هربت الغزالة خائفة من النداء الغامض، أم أن قوائمها ستقودها إلى مصيرها المجهول. ما تأمل أحد هذه اللوحة، حضر زوار إلى القاعة لكن ما نظروا إليها إلا عرَضًا وكأنها أمر ثانوي لا أهمية له، باستثناء شخص واحد. في آخر يوم من أيام المعرض، وقفت فتاة مجهولة تمسك بيدها دفترًا صغيرًا، لم يرها حامد من قبل، أمام تلك اللوحة، وأبقت عينيها على منظر الغزالة وهي ترفع أذنها إلى الأعلى، وقد التقطت صوتًا، وما أعارت ربما للغابة اهتمامًا.

راقب حامد الهيتي الفتاة طيلة الوقت، مرة بطرف خفي ومرة بنظرات متمعنة ومدققة، منتظرًا منها أن تستدير إليه وتسأل

أو تستفسر، فما سألته ولا استفسرت منه، وأراد أن يبادرها بالسؤال عمَّا اجتذبها في اللوحة تلك، فما فعل.

عرف حامد الهيتي أناسًا لم يجدوا صعوبة في تبادل الحديث مع فتاة غريبة لكنه ما قدر على فعل ذلك، وأتعبته فكرة أن تكون المرأة بعيدة عن حياته مع أنه يريدها أن تكون بجانبه.

احتار حامد، أخذ له سيجارة فقد يهتدي أثناء تدخينها للخطوة اللاحقة. عند الباب، خارج القاعة دخَّنها، وهو يعد نفسه لما يأتي، وعندما رجع لم يجد الفتاة، فتَّش في الأرجاء، اختفت تمامًا.

ترك القاعة وخرج إلى الشارع، فما كانت هناك، كاد الأمر ينتهي إلى أنها لم تكن بالنسبة له سوى ضرب من الخيال وشطحة من الشطحات التي تأتي لكل الفنان، أراد أن يصرف النظر عن هذا الموضوع، لكنه انتبه إلى أن الدفتر الصغير الذي كانت تحمله بيدها قد تركته فوق إطار اللوحة.

ضاعت الفتاة في الزحام.

ضاعت إلى الأبد.

هارمونيكا

استمع حامد الهيتي إلى أغنية لبوب ديلان، وقد وصلت شهرته آنذاك إلى الأصقاع البعيدة، هو مغنٍّ وكاتب كلمات أغاني، اشتهر مع انطلاقته الفنية بداية الستينات، وصارت بعض أغانيه تمثل رمزًا لحركات تمرُّد الشباب.

وعندما انفردت آلة هارمونيكا بوب ديلان بالعزف، التمعت عينا حامد بفعل تأثيرها الأخَّاذ، وقد تسلَّل إلى الأعماق، كان حامد حينها طالبًا في معهد الفنون الجميلة.

دخل حامد مرة محلات «أورزدي باك» في شارع الرشيد، فأوقفته آلة الهارمونيكا المعروضة في «قسم الموسيقا» بالطابق الثاني فاشتراها.

ما أغمض حامد أجفانه ليلًا، إلا بعد أن ينفخ في آلته، فتخرج منها أنغام ما كانت مفهومة في البداية، لكن مع الأيام، لانت لإرادته ورقَّت لمشاعره، ما علَّمه أحد العزف عليها لكنه تعلَّم.

بعد أن أنهى حامد دراسته في بغداد ما رأى أحد هارمونيكاه ولا سمع أحد بعد ذلك شدوها. اختفت الهارمونيكا.

أقام حامد معرضًا للوحاته مرة، استضافه المعهد الثقافي السوفيتي وعرض اللوحات على جدران قاعته، والمعهد الثقافي يقع في منتصف شارع أبي نؤاس، ونهر دجلة منه على بعد خطوات.

في السادسة فتحت القاعة أبوابها وبدأ الحضور يزداد عددهم، وبعد ساعة ما عاد لك مكان تقف فيه، استقبل حامد ضيوفه وأجاب عن بعض الاستفسارات، لكن فجأة ما عاد حامد موجودًا هناك، اختفى من القاعة تلك ومن المبنى كله.

عبر حامد شارع أبي نؤاس إلى الجهة المقابلة فواجه النهر طافحًا بالمياه، كانت ليلة من ليالي مايس وما اهتزت ورقة شجرة بعد، تراءت له على صفحة المياه أنوار الضفة المقابلة، وغير بعيد عن مرمى بصره كان هناك القصر الجمهوري، وفكَّر: لا أحد يستطيع أن يسجن مياه دجلة.

أخرج حامد من جيبه آلة الهارمونيكا، نفخ فيها فأصدرت أصواتًا ما وضحت معالمها في البداية ولكن استجابت له أخيرًا فعزف: «لمَّا انت ناوي تغيب على طول» لمحمد عبد الوهاب، وعزف له أيضًا: «لأ مش أنا اللي أبكي»، وعزف: «قلبي بيقول لي كلام». أنهى حامد عزفه بموسيقا أغنية لسعدي الحلي: «تناشدني عليك الناس».

قلت: أهذا معقول يا حامد! أغاني سعدي الحلي على الهارمونيكا!

اختفت هورمونيكا حامد وما ظهرت بعد ذلك، ما ظهرت إلى الآن.

ضاع الزورق في الزحام

حضر حامد الهيتي معرض الواسطي في قاعة «كولبنكيان» الواقعة بالقرب من ساحة التحرير، و«الواسطي» هو الرسام والخطاط «معروف يحيى بن محمود الواسطي» من واسط في العراق، نسخ مقامات الحريري وعددها خمسون، وزيَّنها بمائة منمنمة من رسومه، عبَّرت كل واحدة منها عمَّا كان في المقامة من حدث. قُل هو ترجم الصور الذهنية وحولها إلى واقع، تُعد أعماله فتحًا في التصوير. أما الحريري فقد بدأ كتابة مقاماته سنة 495 وأتمَّها في 504 هجرية. كتبها بأسلوب السجع.

وقف حامد أمام لوحة للواسطي، تأملها طويلًا، لم تعطه تلك اللوحة فرصة ليُكمل الوقوف أمام اللوحات الأخرى. كانت لزورق، جلس فوقه خمسة رجال احتلوا جهة الزورق اليسرى، وعلى الجهة المقابلة كان ثلاثة رجال، وتحت الزورق كانت هناك أسماك تتحرَّك في ماء النهر.

قبل أن ينتهي حامد من تأمله ذاك، اختفت المركب ومن عليها فجأة، فما قدر على استيعاب الأمر وما صدَّقت عيناه ولا عقله هذا الذي حدث، أراد أن يسأل بعض المشرفين على المعرض أين اختفى الزورق، وما هو مصير من كانوا عليه، لكنه لم يسأل، ربما سيظن أحدهم أنه شرب شيئًا قبل دخوله القاعة، أو سيظن البعض أنه يخلط الحقيقة بالخيال والواقع بالأوهام، فما عادت له القدرة على فرزها وترتيبها.

بعد منتصف الليل في البيت، قبل أن يغفو حامد، وهو في فراشه، داهمه ضباب سرعان ما انقشع، وجد حامد نفسه على شاطئ النهر، وكانت هناك مركب مثل تلك التي رآها في لوحة الواسطي، وثلاثة رجال يجلسون على اليمين وخمسة على اليسار، صاح أحدهم: ادنُ منا يا حامد، لا تخف.

قال حامد: أحلِّفك بمن تستدفع به الأذى، من أنتم؟

قال الشخص نفسه: هؤلاء أبطالٌ من مقامات الحريري وأنا الواسطي، سراج الغرباء وتاج الأدباء، لم يبق عندي مهجة، فقد تعبت من الفرجة، قد خرجت مع هؤلاء القوم من قاعة كولبنكيان، فما رأيت الإنس في طريقي بل الجان، فهالني أمركم وافتضح سرُّكم، قد عبثتم بالهواء فغدا هو والكنيف سواء، لوَّثتم ماء النهر فماتت الأسماك وحرثتم الأرض فما نبتت سوى الأشواك، ما استعبرتم عينًا تدمع ولا اعتبرتم بنعي يُسمع، لا ترتاعون لإلف يُفقَد ولا تلتاعون لمناحة تُعقَد، عجبي عليكم، كشفتم عن رؤوسكم وسترتم وجوه نسائكم، ألا والذي زيَّن العيون بالحَوَر، وجعلني أرسم أحداث مقامات الحريري بالصور، قد عزمت العودة إلى مكاني في قاعة كولبنكيان، فأعلق نفسي على حائطها، فلا مكان لي بينكم، بعد أن أسفت على حالكم وعيشتكم.

قال حامد: هل هو قرارك النهائي؟

قال: لا رجوع عنه.

قال حامد: رافقتك السلامة، موعدنا غدًا في كولبنكيان.

عاد الضباب من جديد وانتشر فما اهتدى حامد إلى نومه إلا بعد جهد.

هُبَل

على ضوء السيارة الساطع رأيت حامد الهيتي أمامي واقفًا ومعه مجموعة من أصدقائه، عند نصب الساعة الذي يصل ارتفاعه إلى عشرين مترًا تقريبًا، والساعة تحيي الناظرين إليها من فوق، وقد وقف القوم ينظرون، وجوههم إليها شاخصة، وأياديهم مرفوعة للأعلى، ثم أنزلوها بتمهل على استقامتها وأنزلوا معها أبصارهم وأعلى صدورهم، ثوان مرَّت، عادوا بعدها لأذرعهم يرفعونها.

اقتربت الساعة من التاسعة والسماء تمطر مطرًا خفيفًا. كنت أقود سيارتي، على مقربة من النصب، وقفت أنتظر مرور السيارات على يساري، وحين عبرت وأصبحت في الساحة على مقربة من الجمع، أنزلت الزجاج بجانبي فسمعتهم يردِّدون (هُبل.. هبل) بصوت خاشع موحَّد.

ناديته: حامد يا حامد؟

التفتَ نحوي، فلاحت نشوة الوجد في وجهه.

قال: من! ساعد بن أسد الفزاريّ! يا مرحبا يا مرحبا، انزل يا أخي عن راحلتك، وتعال فالقوم تعرفهم، أسياد مكة وأشرافها وأعيانها، تعال خذ معنا سجدةً أو سجدتين لهبل عساها تنفعك أو اجعلها خمسًا لو شئت، قبل أن تذهب إلى مضارب بني عبس، القريبة من مقهى الجندول. وإن فضَّلت الذهاب، وعدم

النزول، بلِّغ سلامي إلى عنترة ولكل شعراء بني عبس، وبني هُذيل، وكل من يسأل عنا من شعراء المجون والخمرة، وشعراء الوعظ والإرشاد ولو صادفك عمر بن أبي ربيعة فقل له إن للدهر يومين، يوم لي ويوم له.

القفل

وقفت امرأة سقطت سنَّتان متجاورتان من مقدمة فكِّها الأسفل، هي في رأي السيد لطيف صاحب المحل الصغير في السوق الكبير: لها جسم برغوث وساقا بعوضة/ ووجهٌ كوجه القرد بل هو أقبح. هذه هي في رأيه.

قالت له بصوت مشروخ: بعتني هذا القفل مغشوشًا يا سيد لطيف، خذه وأرجع لي نقودي التي أخذتها مني.

قال: ما بعتك قفلًا، لأني لا أبيع الأقفال في محلي، كما ترين، أبيع البهارات والزعفران وماء الورد وزهر الأقحوان، أبيع القرنفل والقرفة والزنجبيل والهيل واليانسون، أبيع عرق السوس وثمر العليق المجفَّف وأشياء أخرى قد تعرفينها أو لا تعرفينها، فكيف أضع الأقفال بجانب ما عددته لك؟

قالت: لا، كل الذي عندي في البيت من أقفال اشتريتها من محلك فلا تنكر، لكنك هذه المرة بعتني القفل مغشوشًا، لا يفتح ولا يغلق، وأنتم التجار يأتيكم الثراء من غشِّكم في البضاعة.

قال مبتسمًا: حقك علينا يا حاجة، إذا كنا غشاشين فماذا تكونون أنتم؟

قالت: نحن؟! نحن أهل الكرم والجود وصافي النسب يُرَدّ لنا.

قال: هذا أنتم، ونحن؟

قالت: أنتم! قصدير معدنكم متصدئ وعتيق وما عاد ينفع، ومعروف معدنكم.

قال: هذا نحن وأنتم؟

قالت: نحن الذهب غالي ومعروف معدننا.

قال: طيّب، هذا أنتم ونحن؟

قالت: أنتم ما تعرفون حق الجار على الجار.

قال: هذا نحن وأنتم؟

قالت: سند للجار نحن ولجار الجار، وحصن الشرف نحن، وترابنا مسك وعنبر، يَرِدّ الروح للمجروح لو شمّه.

قال: هذا أنتم ونحن؟

قالت: شوك وعاقول وأشياء مثلها أنتم، صبّير وطرطيع، ما كانت عندكم في يوم غيره.

قال: هذا نحن وأنتم؟

قالت: نحن تفاح أبو خد أحمر وخد أصفر، تفاح لبناني.

قال: ونحن؟

قالت: بيض فاسد أنتم.

قال: وأنتم؟

قالت: ما عبدنا الشهوات ولا مال أحد منا للنزوات.

قال: هذا أنتم ونحن؟

قالت: أنتم ألعن من...

سكتت تحاول جاهدة أن تلتقط أنفاسها، قالت: «ألعن من... سكتت وابيضَّت عيناها وسال الزبد من طرف فمها، ولولا بعض المارة، أسعفوها بجرعة ماء وأخذوا بيدها إلى سكنها، مع القفل الذي لم تفلته من قبضة كفِّها.

أغلق السيد لطيف باب محله، عندما أزِف موعد انتهاء يوم من أيام العمل الشاق.

خارج السوق والشمس قاربت للمغيب، انتشر باعة الخضر والفواكه، وقبل أن يعبر الجسر القديم إلى الجهة الأخرى كما هي العادة، وقف عند بائعة الفجل وما كانت حينها تنادي على فجلها، فصوتُها لجماله يُفطِر الصائم ويجبره على أكل فجلها ولا شيء غيره في الإفطار.

قال لها: فجلكم أحسن فجل في العالم، صوت وصورة.

قالت: هذا فجلنا وفجلكم؟

قال: لم تبق في فجلنا بقية من روح بعدما نظر إلى فجلكم، طلعت روحه وراح شهيدًا.

قالت: هذا فجلكم، وفجلنا؟

قال: فجلكم هو اللي قبض على روح فجلنا.

دعاء مستجاب

قبل أن يدخل الدكتور محمد عيادته، كان في انتظاره شخص من معارفه عند مدخل البناية التي فيها العيادة، رحب الدكتور محمد به وسأله إن كان يعاني ألمًا في أسنانه، فقال الشاب: دكتور أحتاجك في موضوع. وأكمل: دكتور عندي أخبار أن الست فوزية عيدان تراجعك لتقوِّم أو تحشو أو تقلع بعض أسنانها، أهلي في الحقيقة أقنعوني بخطبتها، وقالوا لي: نحن سألنا عنها واقتنعنا بها من نواحي عديدة، ويبقى الأمر لك، اسأل عنها وأعطنا رأيك قبل أن نفاتح أهلها بالموضوع.

التقط الشاب أنفاسه قبل أن يتابع: أنا في الحقيقة قلت لنفسي: من لي غير الدكتور محمد أسأله بعد أن طرق سمعي أنها تراجع عيادتك.

ارتبك الدكتور محمد وقال: لكن أنا طبيب ولا يمكن أن أفشي معلومات عمَّن يراجع عيادتي.

قال: دكتور، أنا لا أريد غير معلومات عامة حتى لا يقع الفاس في الراس وأتورَّط، هذه قضية مصيرية بالنسبة لي أرجوك.

قال الدكتور: ما الذي يفعله المرء عندما يراجع طبيب أسنان! قد يعاني من تسوُّس في بعض أسنانه.

قال: عادي، تتصلَّح.

قال الدكتور: بعضهم يحتاج إلى موت لعصب السن فأجري له اللازم.

قال: ما في مشكلة، يموت العصب.

قال الدكتور: قد يحتاج إلى قلع سن أو ضرس.

قال:عادي، لكن أنا يا دكتور، وقد قدمت إليك ساعيًا إلى الوصول إلى أكثر من هذه الأشياء.

قال الدكتور: بصراحة أسنانها تحتاج إلى وقت كافٍ لترجع لها ابتسامتها الجميلة ولكن وأرجو أن تسمعني، أنا أعرف أن لها ارتباط بالحزب الحاكم.

قال الشاب: هي معلّمة وجميع من هم في هذه المهنة مفروض عليهم الانتماء إلى الحزب، حالهم حال الذين في الجيش، ورجال الشرطة وغير ذلك، ما في مشكلة، الأمر عادي.

قال الدكتور: لكن هي متحمسة لهم أكثر مما يجب، اجتماعات وكتابة تقارير وغير ذلك.

قال: تتزوج وحماسها يهدأ.

قال الدكتور: أعرف أنها تطمح أن تعلو درجة في عملها، فتصبح معاونة مديرة مدرسة ابتدائية.

قال: ما في مشكلة.. الشخص المناسب في المكان المناسب.

قال الدكتور: وقد نذرت عند شباك الإمام المقدس في كربلاء، أنه بعد أن يتحقّق أملها هذا وتصبح معاونة، ستسمِّي طفلها الأول بعد أن تتزوج باسم صدَّام. الآن ظهرت التنقلات والتعيينات الجديدة فظهر اسمها مديرة لمدرسة دفعة واحدة وليس نائبة لمديرة كما كانت تريد وتطمح، ولك أن تتصوَّر، أنا من جانبي وضعتك في الصورة.

مسح الشاب طرف أنفه مرتين متتاليتين وأخرج كبريتًا من جيبه، وقال: وأنا أصبح بعدما أتزوجها ويأتيني الولد، أبو صدام، لا يا دكتور، لا!

ابتعد عن الدكتور محمد وعن البناية التي فيها العيادة، وهو ينفث دخان سيجارته بشكل متلاحق.

فطر من سمع صوتها في رمضان

قال هادي: من سمع صوتَها في رمضان فهو فاطر وسيغفر اللّه له إفطاره، فما ارتكب إثمًا ولا معصية، وما جاء إفطاره هذا إلا لضرورة وسيغفر اللّه له أيضًا ما تقدَّم وما تأخَّر من ذنوبه.

رأى هادي جارتهم الجديدة تودِّع زوجها واقفة وباب بيتها نصف مفتوح، وكان مارًّا صباحًا. قالت لزوجها: عيني علَّاوي، لا تتأخرعليَّ ليلًا، أخاف عليك حبيبي علَّاوي.

صعد الوشيش إلى رأس هادي، صعد لأقصى مدى وقد رأى من خلال غطاء رأسها غير المحبوك خصلةً من شعرها انزلقت فوق خدها المورَّد وصبغة الحنَّاء لا تزال بكفيها، فقد سكنت هذا الزقاق قبل أقل من شهر، أو هي سكنت هنا من اليوم الذي تزوجها فيه حبيبها علَّاوي.

رآها هادي ثانية كما رآها في المرة الأولى، وكانت تودع زوجها صباحًا، قالت له: عيني علاوي، لا تتأخر عليَّ فما أقدر على فراقك ولا طاقة لي على ذلك.

أمضى هادي بقية نهاره تائهًا حزينًا، يجمع ويطرح ويحسب، يحاول أن يصل إلى نتيجة، لكنه دائمًا يخطئ فيها، لم يسمع من أحداهن مثل هذا الكلام الذي يفطر القلب.

حاول هادي أن يراها مرة أخرى فما استطاع ومحاولاته جميعها باءت بالفشل، مع ذلك لم يبُح بسره لأحد وبسبب ذلك

أصبح ذهنه أكثر شرودًا وأصبح أيضًا أقل اهتمامًا بشؤونه الخاصة الأخرى، ووصلت به الحال إلى أنه في يوم نسي أن يدخل بيته فواصل المشي في الزقاق وما انتبه إلى ذلك إلا بعد حين. ما نهاية هذا الأسى؟ سأل هادي نفسه.

بعد شهرين أو أكثر ماتت أم زوجها نتيجة مرض ما نفع معه العلاج فوجدها هادي فرصة ما بعدها فرصة، قال في نفسه: هذا هو يومك، للجار حق على جاره والنبي أوصى بسابع جار، فكيف إذا كان خامسًا!

بدأ هادي برسم المخطط، ولكي ينفذه ذهب إلى السوق، اشترى ما كان بتقديره ضروريًّا لما كان يريد أن ينفذه. في اليوم الثاني من وفاة المرأة أقيم مجلس عزاء للنسوة في البيت، أحيته إحدى القارئات اللاتي ذاعت شهرتهن في إحياء مناسبات كهذه، تعدِّد فيه محاسن الفقيدة وتأتي لذكر آل البيت وبعض الرجال الصالحين والنساء الصالحات، أثناء ذلك يرتفع بكاء وعويل بعضهن، ممن لم يقدرن على حبس مشاعرهن الدفينة ففاضت وانتشرت في الأرجاء.

في اليوم التالي عصرًا، لبس هادي ما كان قد هيَّأه: الجوربين الأسودين والثوب الأسود، وقد اعتنى بإغلاقه عند الرقبة. أخذ العباءة من درج في خزانة أمه، وقد كان لها عباءتان، واحدة خرجت بها قبل قليل لتذهب إلى العزاء والثانية، يعيدها إلى مكانها متى انتهت حاجته إليها، أحبَك وضع قطعة القماش فنزلت من أعلى الرأس مغطية وجهه، أدخل كفيه في القفازين الأسودين فاختفت أصابعه داخلهما، أخيرًا، بان والنعل الأسود في قدميه

شابة تتمايل بجسدها غنجًا فما عرفها الأطفال ممن كانوا يلعبون مع بعضهم في الزقاق، فما قالوا له كما اعتادوا: مرحبًا عمّنا هادي. بل قالوا «مرحبا يا خاله» فأجابهم بصوت ما سمعوا مثله من قبل، رفيع تخللته نبرة أنثوية «أهلا يا أولاد، حرستكم عين اللّه التي لا تنام»، سار كل شيء على أتمٍّ وجه.

ازدحمت ساحة البيت الضيقة باللاتي توافدن على العزاء، وصوت القارئة سيطر على مشاعر الحاضرات فاستمعن لها وقد دخلت بهن إلى ذكر الصالحين والصالحات من عباده. وقف هادي، ظهره ملاصق للجدار وعيناه تبحثان في الأرجاء، وقبل أن يعثر عليها، وجد أمه واقفة بجواره فأشاح ببصره عنها لكنها بادرته بالسؤال:

– يا شابة، قد أعرفك، فمن أنت؟

أجابها بصوت رفيع متناغم: أنا أم حسن.

قالت أمه: وأنا أم هادي، أأنت متزوجة؟

أجاب هادي: متزوجة وعندي من الأولاد حسن وحسينة، يبوسون يديك.

قالت: اللّه يحفظهم لك.. أنا فقط أردت أن أعبِّر عن إعجابي بقماش عباءتك فهو معتبر وراق وهو يشبه قماش عباءة عندي وربما أنا وأنت اشتريناه من نفس المحل، أيكون علي التاجر هو من تتعاملين معه في سوق القماش؟

قال: هو نفسه يا أم هادي.

عثرت عينا هادي تلك اللحظة على من غامر من أجلها، وجدها أجمل مما رآها سابقًا، رأى شعرها من دون غطاء رأس وخصلات

شعرها نازلة على الوجه والرقبة، كانت بقدمين حافيتين، وقد أبرز ما عليها من ثياب سوداء جمال بياض وجهها، نور على نور.

رفعت القارئة صوتها عندما أتت في حديثها للموقف التاريخي الحزين وقد سقط فيه بعض آل البيت قتلى بسيوف أعداء اللّه والدين الحنيف من المشركين والكفار، فصاحت النسوة المتأثرات من اللوعة والحرقة والأسى والضيم، كل صرخة هي آهة طويلة لكنها عالية، فصاح هادي معهن كما لم تصح أية من اللاتي صحن (يبووووه)، خرجت منه رفيعة منغَّمة، طويلة وممتدة وسلسة وما مسكها قيد، وصلت الصرخة ربما إلى الجار السادس، فقالت المرأة التي بجواره والتي هي أمه: على مهلك يا أم حسن، على مهلك يا أم حسينة، قد تتقطع أوتارك الصوتية بصيحة مثل هذه، وأنا أخاف على أوتارك الصوتية، لا تكرِّري مثلها أرجوك لأجل حسن وحسينة، لأجل شبابك وحسنك وجمالك، لأجل راعي بيتك، لا تكرِّري مثلها.

**

بعد يومين أو ثلاثة سألته أمه عن عباءتها التي وضعتها في درج الخزانة، قالت: أشعر كما لو أن هناك أحد ما لبس عباءتي، فأنا أشم فيها رائحة شخص ما لبسها وتعرَّق كثيرًا، أنا متأكدة أني وضعتها في الدرج نظيفة ومكويَّة، ألا تعلم يا هادي من أخرجها من خزانتي؟

كان هادي حينها منشغلًا بتلميع حذائه بلونيه الأسود والأبيض، قال:

– يا أمي، ما أنا بساحر لأعرف من فتح خزانتك وعبث بمحتوياتها! صحيح أني أملك حاسة سادسة وأعرف من خلال

الوشيش في رأسي ما خفي عني، لكن، في هذا الموضوع، ابحثي يا أمي عن شخص غيري لتسأليه هذا السؤال، لعله يكون ساحرًا فيهديك لمن استعملها أو من استعملتها دون علمك.

احتارت الأم وقالت:

– لم يبق غير تلك المرأة التي وقفت بجواري بمجلس العزاء، أم حسن وحسينة، لم يبق غيرها، صاحبة الصوت الذي يصل إلى الجار السابع، لربما هي دون النسوة جميعًا جاءت في غفلة منا إلى هنا وأخذتها، يمكن! قادر على كل شيء قدير، عندي شك أنها قادرة على فعل ذلك.

وقالت له: أما سمعت بامرأة اسمها أم حسن وحسينة؟ قال هادي: يا أمي ما أنا بساحر.

قالت: وأنا لست بساحرة أيضًا.

لولا بطّه

لولا (بطّة) لكان هادي طعمًا لسمك القرش والجرّي ولكل الكائنات الحية السابحة في نهر «الحلّة»، مَن مِن بعده سيغني لأصحابه في «مقهى الجندول» وفي غير مقهى الجندول أغاني محمد عبد الوهاب التي ما أبدع في تقليدها شخص مثل هادي وبشكل خاص أغنية «لما انت ناوي تغيب على طول». محمد عبد الوهاب ذكي جدًّا كما يقول هادي، ألحانه الخالدة لم يعطها لغيره من المغنين بل خصَّها لنفسه وهذا دليل على الدهاء والفهم والقدرة في تقييم الأمور ووضع كل شيء في مكانه الصحيح، وأغنية «لما انت ناوي» احتفظ بها لنفسه وهل هناك ما هو أعز من النفس في أمور مثل هذه ومثل غير هذه! غنَّاها عبد الوهاب فأبدع فيها أيَّما إبداع.

كان هادي في البيت بعد ظهر ذلك اليوم وقد شعر بالملل والإحباط يحيطان به من كل جانب، وكان حزينًا حينًا وقلقًا حينًا آخر، ليس في جيبه ما يكفي من النقود، فالمال ربما يساعده في إزالة الملل والغمِّ وأشياء كثيرة أخرى، لكنه فكر: ربما المال لا يأتيه بجديد، ما الذي يفعله إذا كان الحبيب بعيدًا عنك، أو راح إلى عش غيرك.

أثناء انشغاله بهذه الأفكار وغيرها وصله خبر بطّة، معبودته الفاتنة، أمله الذي لا أمل له من بعده، وقد نزلت تسبح في النهر،

عند شاطئ محلة «الطاق» غير بعيدٍ عن بيتها وبيته، أوصل الخبر جارٌ له، وهدفه في ذلك أن يرى بأم عينيه، وقع الخبر على نفس هادي، فيتأكد من مكانة بطة في قلبه وإحساسه، جار فضولي، يحشر أنفه في الصغيرة والكبيرة، عرفه هادي وهذه ليست أول مرة يعملها معه.

غيَّر هادي ما عليه من ملابس ليخرج إليها، فقد تغادر بطة ماء النهر وما يجدها هناك، فتضيع الفرصة الثمينة، انطلق مسرعًا فصاحت أمه: لا تسرع يا هادي، انتبه لنفسك فهي أمَّارةٌ بالسوء.

بالفعل، وجدها هادي تلعب بماء النهر ما شاء لها اللعب، مارست بطَّة هوايتها هذه أمام أعين الناس جميعًا، سواء قبلوا منها هذا الفعل أم لم يقبلوه، وفي الحقيقة ما استهجن فعلها أحد، في وقت لو فعلت فتاة غيرها ذلك لماجت الدنيا وهاجت في مدينة صغيرة كهذه، الفتيات فيها ما لعبن يومًا كرة الطاولة فما بالك بالسباحة.

دفعت بطَّة الماء بساق مستقيمة مع جسمها المدفوع إلى الوراء فظهرت ربلتها بيضاء ممتلئة انحسر عنها الثوب، وعندما غطست في الماء، ورفعت ساقيها إلى الأعلى كما تفعل البطَّات في الماء، طار عقل هادي، في تلك اللحظة أشارت بقصد له وربما بمكر ودهاء أن ينزل إلى الماء ويأتي عندها، فنزل بملابسه غير مصدِّق دعوتها تلك وقد نسي أنه لا يعرف السباحة، وقبل أن يصل إلى حيث كانت غطس فما عاد يراها وهو في أعماق اللج، وكاد صدره يشهق بالماء لولا أنها أمسكت به وسحبته من ياقة قميصه برفق وعلى مهل إلى ضفة النهر، وقد عرفت حينها كيف

تنقذ غريقًا بأيسر الطرق، وما احتاجت إلى مساعدة من أحد، ويقال إنها بعد أن طرحت جسده على الضفة، باشرت بعمل التنفس الاصطناعي لإعادته تدريجيًّا إلى الحياة، وعندما لم يأت ذلك بنتيجة، سارعت وقبلته قبلة الحياة ليدخل الهواء إلى رئتيه، فأعادت قبلتها السحرية تلك له الحياة.

اختلفت الأخبار، أكَّد بعضهم أنها أعطته قبلة الحياة فعلًا عندما نفخت الهواء في رئتيه، بيد أن آخرين راحوا يتهامسون من الحسد «هذه كلها إشاعات»، وعندما يلتقي أحدهم بهادي في هذا المكان أو ذاك يبادره بالسؤال المعتاد: أتفكر بالغرق ثانية عندما تكون بطة تسبح في النهر؟ فيرد عليهم بملل «لقد غرقت مرة وأدت الواجب تجاهي، وأنا أدين لها بهذا الفضل، وإن شاء اللّه أرده لها يومًا».

فيقول له آخر: لو تجعلنا على بيِّنة، هل ترده لها كاملًا دفعة واحدة، أم بالأقساط، قبلة بعد قبلة؟

شجعت قبلة الحياة التي أعطتها بطَّة لهادي، الكثير من شباب المدينة، أن يحذو حذوه في الإقدام على الغرق عندما يرون بطة تسبح في النهر لتنقذهم، فلربما أعطتهم مثل تلك القبلة، تعيدهم بها للحياة، ولكن ما أفلح أحد في مسعاه.

عصر ذلك اليوم الذي أنقذته بطة من الغرق وصل هادي إلى مقهى الجندول فبدا لصديقه عبد الجبار خائر القوى وبعينين ما قدر أن يفتحهما بالكامل، وبدا كما لو كان في عالم ثانٍ، سأله عبد الجبار عما حصل معه هذا اليوم من أحداث، فما أجاب على السؤال.

بعد دقيقة أخذ يغني لمحمد عبد الوهاب أغنية «يا دنيا يا غرامي» لكن بطريقته: يا بطّه يا غرامي/ يا دمعي يا ابتسامي/ مهما كانت آلامي/ قلبي يحبك يا بطة».

قال عبد الجبار: أراك قلت: بطة يا غرامي ولم تقل يا دنيا يا غرامي.

قال هادي: أنا قلت ذلك! لا، هذه إشاعات مُغرضة.

الأحول

كان الرجل أحول العين فما قدَّر حامد الهيتي تلك العين حقَّ تقديرها.. عندما أراد حامد أن يدفع حساب الطرشي الذي اشتراه من بائع الطرشي سمِع من يقول للبائع: الطرشي على حسابي، لا تأخذ من الأستاذ.

ما دفع حامد الحساب، لكنه سار إلى الرجل الكريم صاحب محل لعب الأطفال المقابل له فاستقبله الرجل أحسن استقبال.

قال حامد: أتعرفني!

قال الرجل: ومن لا يعرفك! أنت رسَّام مدينتنا ورمز من رموزها بل علم من أعلامها.

شكره حامد، فقال الرجل: يا أستاذ لي طلب عندك، أريد أن ترسم لي صورتي الشخصية مثلما رسمت لجاري صورته.

نظر حامد إليه جيدًا فرآه أحول العين، قال: لا مانع عندي، أرسم صورتك وبالشكل الذي تريد.

قال الرجل سأدفع لك خمسة دنانير كما دفع لك جاري.

قال حامد: لكن موضوعك يختلف، لأنه سيكلِّفني جهدًا أكثر، سأصلح لك عينك الحولاء وأجعلها مثل أختها وستنظر بها أفضل مما نظرت زرقاء اليمامة.. احسبها يا أخ، كم سيكون

الحساب وأنت تصلح عينك عند طبيب العيون؟ كثير وكثير، لكني أعمله لك بتراب الفلوس، بدل الخمسة التي أعطاني إياها جارك، أريد منك عشرة. قال الرجل: ولا يهمك يا أستاذ، موافق، وسوف لا أنسى جميلك هذا وكن واثقًا أنك عندما تأتي أو تأتي زوجتك عندي في المحل لشراء لعبة لطفل من أطفالك سأعمل تخفيضًا في السعر يصل إلى خمسين في المائة.

قال حامد: أنا ما تزوجت بعد.

قال الرجل: إن شاء اللّه تتزوج ويأتي الأطفال، وتأتي عندي، لعبة الطفل إذا كانت بدينار أعملها لك بنصف دينار، الحاجة بعشرة أعملها لك بخمسة، والآن، هل من المعقول أني أعمل لك هذا التخفيض على حاجاتي وأنت ما تعمل تخفيض على حاجاتك! هكذا هي العدالة!

قال حامد: ما فهمتك؟

قال: العشرة التي طلبتها مني تصبح بعد التخفيض والخصم خمسة دنانير.

رضخ حامد للأمر الواقع فقال: ولا يهمك، كما تريد.

قال الرجل: تصور الأمر يا أستاذ حامد وأنت تدخل على أطفالك في البيت واللعب التي اشتريتها مني بين يديك وهم يتصايحون: بابا جه بابا جه، أنا هذه بنظري تعادل كنوز الأرض وليس خمسة دنانير أردتها مني مقابل رسمك للصورة. قال حامد: ما فهمتك؟

قال الرجل: كل هذه السعادة أمنحها لك وهي من كنوز الدنيا وأنت تطلب مني خمسة دنانير لترسم صورتي! يا أخي أنت من يجب أن يدفع لي خمسة دنانير!

قال حامد: سأرسمك لكن على بشرط أن أبقي عينك الحولاء كما هي وأن أسعى مع الجاحظ، الكاتب البصري، ليضمَّك مع من ضمهم كتابه الشهير: البرصان والعرجان والعميان والحولان.

البيرة للنساء والهولنديين

في اليوم الذي سمع فيه حامد الهيتي عبارة «البيرة للنساء والهولنديين» التي أطلقها يانك في مسرحية «القرد كثيف الشعر» وقد حضرها على مسرح أكاديمية الفنون الجميلة– والعبارة هذه أخذت في نفسه مكانًا فريدًا. هذه المسرحية مثَّلها طلبة قسم المسرح بأكاديمية الفنون في الوزيرية ببغداد وأخرجها طالب من بينهم وتعتبر أطروحة قدمها للقسم، ما يستطيع ذلك الطالب تجاوزها كي يتأهل للتخرج.

المسرحية ألَّفها يوجين أونيل الأمريكي الحائز على نوبل، رصد المؤلف من خلال بطله «يانك» قسوة الرأسماليين في تعاملهم مع المعدَمين، وهم هنا طبقة الوقَّادين ممن يعملون تحت في إحدى السفن التي تسير بالفحم، وعلى رأسهم «يانك» الشخصية التي تقنع بالقليل الذي يقدَّم لها وللآخرين القابعين في العالم السفلي من السفينة المملوكة لواحد من أباطرة صناعة الحديد والصلب. أما في العالم العلوي، الناس اللي فوق، فما يقتنعوا حتى بالكثير.

في المسرحية، دعا مجموعة من الوقَّادين خلال فترة استراحتهم صاحبهم –يانك– إلى شرب البيرة معهم، فقال متعجبًا: أنا أشرب البيرة! البيرة للنساء والهولنديين.

نسي حامد الهيتي أحداث المسرحية كلها فيما بعد وتمسَّك بهذه العبارة وسار على نهجها، قد تدعوه لأكل الباميا معك في أول نزولها للسوق، فيقول لك: أنا آكل الباميا! الباميا للنساء والهولنديين. تقول له: تعال نركب الباص ليوصلنا إلى المكان الفلاني. يقول لك: أنا أركب الباص! الباص للنساء والهولنديين. تحدِّثه عن كاتب ما فيقول: ومن يقرأ لهذا الكاتب غير النساء والهولنديين.

مرة عانى حامد وجعًا في ضرس من أضراسه فاقترحت عليه أن يراجع طبيب الأسنان الفلاني فقال لي: أنا أراجعه! هذا طبيب لأسنان النساء والهولنديين.

في ظهيرة ساخنة، قبل أن أعبر الجسر القديم في طريقي إلى البيت، طلبت عصيرًا من الرُّمَّان من عند محل «جبار أبو الشربت» وجبَّار علَّق على الحائط في محله شجرة العائلة، وعندما تسأله عنها يقول لك تعال لتتفحصها وأنا حاضر لأي سؤال، هو يعتز كثيرًا بأصله وفصله لأنه من آل خفاجة.

كنت مستمتعًا بشرب العصير وفيه الثلج المبروش وما ذاب كله بعد، أثناء ذلك مرَّ حامد من أمامي فدعوته لشرب عصير الرمَّان البارد، فردَّ عليَّ: وهل مثلي من يشرب عصير رمان جبار أبو الشربت! فما هو إلا مشروب النساء والهولنديين.

سمع جبار أبو الشربت ما قاله حامد فازورَّت عيناه وطار الشرر منهما، وما كان جبار قبل ذلك اليوم سريع الغضب ولا كان متسرعًا، لكن الموضوع مسَّ الحاجة التي يأكل منها عيشه، على الفور أخذ المطرقة التي يكسِّر بها ألواح الثلج وخرج مهددًا بها رأس حامد وصاح:

– أعد ما قلته لأسمعها منك جيدًا!

قال حامد: وما الذي أزعجك في قولي؟

قال: قلت لك أعد ما قلته لأعرف شغلي معك.

قال حامد: لا تظنَّ بي الظنون يا جبار! فلا تتهمني وتكُن غليظ القلب معي وأنت بعيد عن هذا، أنا ما قلت غير «إن عصير رمان جبار أبو الشربت، هو مشروب الرجال السمر والخفاجيين حتى النخاع».

ومن يومها لم يكرِّر حامد عبارته تلك.

الشَّمَر

قال لي وهو في حالةٍ عظيمة من الجزع: سأعتزل التمثيل وأكتب عن تجربتي القصيرة والمريرة في التمثيل كتابًا به مذكراتي، ألم يكتب نجيب الريحاني مذكراته! صحيح أنا لا أكون إلا نقطة في بحره الواسع، لكن، ربما الريحاني ما عانى في مشواره الفني ما عانيت ولم ينل تجاهلًا وضيمًا مثل ضيمي.

قلت: لكنك ما زلت غضًّا وفي أول الطريق، صحيح أنك ما أخذت فرصتك في التمثيل لتصبح كأحمد مظهر في فيلم «الناصر صلاح الدين»، وأنك مثّلت فقط دور علي الأكبر في إعادة تمثيل ما حدث، أيام عاشوراء من شهر محرم.

هذا العام في شهر محرم لم يعطِه المشرف على موكب العزاء دور «علي الأكبر»، انتزعه منه شخص آخر وأعطوه دور «الشَّمر بن ذي الجوشَن» الذي ارتقى في العاشر من شهر محرم، ارتقى صدر الإمام الحسين عليه السلام وحزَّ نحره بالسيف وأيتم عياله وحرق خيامه وسبى النساء، وجرائمه يوم عاشوراء لا تُعد ولا تحصى، لدمويتها وفضاعتها وبشاعتها.

اعترض على هذا الدور، لكن ما سمع اعتراضه أحد، قالوا له: ألست بممثل؟ الممثل الجيد تاقن للأدوار كلها، يمثل أدوار الخير والشر بالقوة والكفاءة نفسها، لقد مثلت دور الخير في شخصية «علي الأكبر» وما عليك الآن إلَّا أن تمثل نقيضه، أنت مبدع وهذا يكفيك.

ما اقتنع بالأمر، وشخصية علي الأكبر تلقَّفها غيره، وإذا أصر أكثر من هذا على رفض شخصية الشمر، ستذهب الشخصية لغيره أيضًا فيفلس من الاثنين، فليوافق فما باليد حيلة.

نزل إلى الشارع وخلف ظهره الرداء الأحمر تلاعبه الريح وهو فوق الحصان والجماهير التي تحب أن ترى الواقعة يعيد إحياءها هؤلاء الممثلون يقفون حوله، وقبل هذا لطخوا وجهه بما أسموه مكياج «الشمر» فبدا عدوانيًّا وشرسًا قد يبطش بك أو بغيرك لو كنت في متناول سيفه.

فجأة عصفت الرياح بالحصان الذي امتطاه فاهتاج وصهل وازورت عيناه ورفع قائمتيه عاليًا فسقط من فوق ظهره سقطة كادت تقصم ظهره.

تدخل الجمهور وهدَّأوا من روع الحصان فاستجاب بعد جهد، بعدها تسارع القوم لرفعه عاليًا، ليجلس فوق السرج ويكمل دور الشمر بن ذي الجوشن.

بعد شهر سألته: أين وصلت في كتابة تجربتك الغنيَّة في التمثيل؟

قال: ما كتبت منه غير الإهداء والبقية تأتي دون شك.

قلت: ولمن أهديته؟

قال: لأبناء الشوارع، أولئك الذين رفعوني ذلك اليوم بأكفِّهم لأجلس فوق ظهر الحصان بعدما وقعت، وعددهم لا يقل عن خمس وأربعين ساقط خلقيًّا وسرسريًّا، وبأصابع أكفِّهم، التي أطلب من اللّه أن يقطعها لهم يومًا، لأنها عملت بمؤخرتي وهم يرفعوني أعمالًا ما رأتها عين من قبل ولا سمعت بها أذن.

السماء والأرض وما بينهما

لـ«سعدي الحلِّي» المطرب العراقي المشهور، أخ أصغر منه سنًّا اسمه «هاشم»، لأنه يبيع «الدهين» والدهين نوع من الحلوى، أصبح اسمه «هاشم أبو الدهين».

استيقظ هاشم من نومه يوما فوجد نفسه ليس حشرة مثل سامزا بطل كافكا في روايته «التحول»، بل بائعًا للدهين، لكن أخاه سعدي استيقظ من نومه يومًا فوجد نفسه مطربًا مشهورًا أحبَّته الجماهير. هكذا تجري أمور الحياة، وهذه بنظر هاشم، لها علاقة بالحظ والقسمة والنصيب، أكثر من علاقتها بتلقي العلوم والآداب في المدرسة، بمعنى أن بالإمكان أن تصبح مطربًا مشهورًا دون أن تنال قسطًا من التعليم، فهل نال سعدي أخوه شيئا من هذا!

يضع هاشم الدهين في صينية تقعد على حامل بعلو متر، ينادي النهار بطوله: دهين، دهين، دهين أبو اللوز. صوت هاشم جميل تسمعه وأنت تمر بالقرب من مكتبة الفرات وسط المدينة، فتطرب له.

**

بالقرب من النخلة الباسقة، في حديقة نادي المعلمين، جلست مع صديقي الأستاذ حسن مدرس اللغة الإنجليزية، وطول النخلة

تلك يصل لارتفاع سقف مبنى سينما الخيَّام القريبة من النادي، غير بعيد عنا مجموعة أشخاص، انضم إليهم هاشم ضيفًا فيما بعد، سمعته يغني لهم في صوت خفيض، بين آونة وأخرى، بعضًا مما حفظه من الأغاني وما كان بينها أغنية لأخيه.

عند الحادية عشرة ليلًا انفضَّت جلستهم وغادروا، لكن «هاشم» لم يغادر بعد، بل تلفَّت حوله مفتشًا عمَّن يكمل معه سهرته، ولأنه يعرف «الأستاذ حسن»، وقف على مقربة وقال: هل يمكنني أن أجلس معكم، إذا كان ذلك ليس فيه إزعاج لكم.

جلس قبل أن يستمع لأي رد من أحدنا. لكن حسن نادى على بطرس النادل وطلب لهاشم كأسًا من الشراب.

قلت لهاشم: يعجبني نشاط أخيك سعدي، كل يومين أو ثلاثة، ينزل له في السوق كاسيتًا جديدًا، وهذا ما لا يقدر عليه أحد من المطربين إلا سعدي!

قال: لا يغرنَّك هذا يا أخ، أنا بعد ثلاثة أشهر سيكون عندي ضِعف ما عنده من الكاسيتات، اصبر عليَّ قليلًا وسترى من هو هاشم.

تقول في معرض كلامك أن فلانًا سافر إلى أوربا، يقول لك هاشم: هي أشهر ثلاثة وأطير إلى أوربا لأحيي حفلة غنائية هناك، فالطلب عليَّ شديد في الغرب أيضًا.

كان الأستاذ حسن يستمع إليه بعدم ارتياح، فقال:

– كيف تريد منا أن نصدقك في مسألة ثلاثة الأشهر هذه وأنت لا دليل عندك ولا علامة تجعلنا نصدق ما تقول؟!

قال هاشم: ماذا تقصد؟ ألا تثق بكلامي؟

قال حسن: أمامك واحد من ثلاثة، إذا فعلتها نثق بك وبكلامك ووعودك بشأن ما ستفعله بعد ثلاثة أشهر.

قال هاشم: وما هي أشياؤك الثلاثة؟

قال حسن: إما تدفع حسابنا جميعًا الآن وهذا رقم واحد، واما تأتينا غدًا بصينية كاملة من الدهين، فتوزعها على القاصي والداني هنا في نادي المعلمين، وهذا ثانيًا، أما ثالثًا، فهو أن تتسلق هذه النخلة العالية، ولا تنزل منها إلا ومعك منها تمرة واحدة.

قال هاشم: الحساب لا أدفعه والصينية لا آتي بها، أما النخلة فأنا لها.

قام هاشم من مكانه يترنح قليلًا، وعند النخلة خلع حذاءه وجوربيه، والتفت إلى الأستاذ حسن قائلًا: لا آتيك بتمرة واحدة بل سأجمع لك ما يمكن أن توزعه على الجميع، يأكلون منه حتى يشبعوا.

تسلق هاشم النخلة، أسرع في التسلق أول الأمر، لكن بعد ثلاثة أمتار تباطأ، وبعد خمسة أمتار أو ستة توقف، أخذ ينظر للأعلى، ربما أيقن أن المتبقي للوصول إلى الأعذاق، هو أكثر من المسافة التي قطعها، فاحتار، لا هو بقادر على النزول ولا هو بقادر على مواصلة الصعود، فقال بصوت عال: أستاذ حسن، في الواقع إني لا أستطيع أن أنزل معي إلا تمرتين واحدة لك وواحدة لي.

في هذه اللحظة نادى الأستاذ حسن على النادل بطرس أن يأخذ الحساب ومعه حساب تلك الكأس التي شربها هذا المعلَّق بين السماء والأرض.

**

في اليوم الثاني أو الثالث، كنت مارًّا أمام مكتبة الفرات، فرأيت هاشم أبو الدهين جالسًا على كرسي، وأمامه صينية الدهين، رابطًا رأسه برباطات وقطع شاش وغير ذلك، لم يستطع أن ينادي «دهين أبو اللوز»، وعندما رآني انتفض وصاح: قل لحسن إن انتقاله للعالم الآخر سيكون، لو شاءت الأقدار، بيديَّ هاتين.

أي لوف يو

ما نال فيلم من الإعجاب والإقبال الجماهيري ما ناله فيلم «سنكام» الهندي، قام ببطولته وإخراجه «راج كابور» أمام الممثلة الجميلة «فيجنتي مالا»، طول الفيلم أربع ساعات، احتوى مجموعة من الأغاني التي سحرت قلوب المشاهدين وبشكل خاص أغنية «آي لوف يو.. إش ليبه دش»، كان الصوت آسرًا وشجيًّا، استمر عرضه على شاشة سينما الفرات في «الحلة» خمسة أسابيع وفي عرضه الثاني ثلاثة أسابيع، في سينما النصر ببغداد استمر عرضه أكثر من خمسة وثلاثين أسبوعًا، فما بقي أحد ما رآه وما بقي أحد لم يذرف دموعًا حارة، أسًى وحرقة ولوعة على مجريات قصة الحب الهندية تلك، حتى «شريفة» التي تبيع الفجل عند الجسر القديم رأت الفيلم ومعها ابنتها زينب التي بلغت الثانية والعشرين وما تزوجت بعد، بكت كلتاهما مثلما بكى الآخرون وضحكتا واستمتعتا بالأغاني الشجية..

مثل كل يوم استمع الأستاذ حسن وقبل أن يخرج إلى مقهى «الجندول» إلى صوت جارتهم أم سعد، تعاتب وتلوم وتعنِّف زوجها، كل يوم وصوتها يصل إلى أبعد نقطة في الكون والأستاذ حسن لا يبعد بيته عنها غير مسافة بيتين لا غير، نفس الكلام تعيده ونفس الاتهام:

– أبو شعد (وكانت تقلب السين شينًا) أجبني، زينب هذه، بأي شيء أحشن مني، بحشنها؟ بدلالها؟ أم بشلامة قولها، أجبني؟

وكل يوم أبو سعد لا يجيبها، يتركها إلى أن تتعب من إعادة السؤال فتسكت.

في هذا اليوم انتقل الخصام بين الاثنين إلى الزقاق، خرج الأستاذ حسن ليرى كيف سينتهي المطاف بينهما، وقفت ويد الهون في يدها تهدِّده بها وتقذفه بكلام جارح أخرجته من فم به التواءة إلى الأسفل قائلة:

– أريد الناش كلهم يشمعون، كل يوم أنت تاركني ورايح لزينب أم الفجل! بأي شيء هي أحشن مني؟

الرجل وأمام الناس لم يحتمل هجومها عليه فأراد أن يرد لها الصاع صاعين، قال:

– طبعا زينب أحسن منك، لها صوت ما أحلاه، خاصة عندما تقول لي بالإنكليزي: آي لوف يو.. إش ليبه دِش. وأنت لا تعرفين الإنكليزي مثلها!

قالت: قلها من الأول حتى نعرف، إذا على الإنكليزي أنا سأقول للأشتاذ حسن، وهو مدرش إنجليزي، ويعرف كل شيء وجارنا وحبَّاب وما يقصِّر، ليعطيني دروشا خصوصية حتى أتعلم هذا الذي تقوله زينب لك، وننتهي من هذي القصة.

وجد أبو سعد، كما لو أن الحجة أسقطت من يده، فأسرع إلى الأستاذ حسن الواقف قريبًا منه وقال بصوت خفيض مع غمزة من عينه اليسرى:

– أستاذ لا تتعب نفسك معها، هذه ما تقدر تقول آي لوف يو.. إش ليبه دش، لو تطلع برأسها نخلة، اتركها.

درس في التعبير

عندما شكا مثنى، الذي هو في صف الرابع إعدادي لأبيه صعوبة كتابة موضوع (الأب) بمادة «التعبير» المطلوب منه غدًا، قائلًا إنه لا يعرف ماذا يكتب، وقد حاول فما استطاع.

الأب بعد إلحاح من ابنه استنجد بجاره، فقد قال له ابنه: إن جارنا يعجبك بمثل هذه الأمور، كاتب ورسام وخطاط، ما قيمة موضوع التعبير هذا بالنسبة له! كتابة صفحتين في الدفتر لا تأخذ من وقته أكثر من ربع ساعة!

ذهب الأب إلى جاره الأديب وترجاه أن يكتب لابنه ذلك الموضوع في التعبير، نزل جاره عند طلبه وقال: دع ابنك ينام مطمئنًا ودرجة الـ100٪ اعتبرها صارت بجيبه.

تحت عنوان «الأب» في منتصف الصفحة كتب:

بعد أن مشَّط أبي شعره على طريقة الممثل رشدي أباضة في فيلم «صغيرة على الحب» أمام سعاد حسني، خرج من البيت يطلب الذهاب إلى السوق لشراء هدية لابنه الذكي في جميع دروسه وبشكل خاص في التعبير، كان أبي سعيدًا بمهمته هذه، لذلك، أخذ يردِّد مع نفسه أغنية أم كلثوم «يا ظالمني». وأخذ يكتب كلمات أغنية يا ظالمني، انتهت الصفحة الأولى فقلبها إلى الثانية، أنهاها تقريبًا إلا سطرين، توقف حينها ليكتب: لم يكمل أبي كتابة

بقية كلمات الأغنية لأنه وصل إلى السوق، اشترى الهدية لابنه ورجع إلى البيت ليسلمها إلى ابنه الذكي.

أخذ الأب الحريص على نجاح ابنه الموضوع من جاره فرحًا، لكنها عشر دقائق فقط لا غير، رجع خائبًا إلى جاره من جديد قائلًا: أستاذ، اللّه يخليك، ابني يقول إن مدرسه في التعبير لا يقبل بمثل هذا الكلام وأنه لو ذهب به غدًا إلى المدرسة، ستكون علامته صفرًا، هذا المدرس لا يحب الأغاني ولا الموسيقا، وهو يعتبر مثل هذه الأشياء حرامًا في حرام.

قال جاره الأديب: وما العمل؟

قال الأب: اكتب له تعبيرًا آخر وأنت القادر القدير على ذلك.

قال: ولا يهمك، دع ابنك ينام مطمئنًا ودرجة الـ100٪ في الجيب ولا جدل في ذلك.

تحت عنوان «الأب» في منتصف الصفحة كتب: بعد أن صلى أبي صلاة العصر، وضع العمامة على رأسه، ولبس عباءته ومداسه ودسَّ خاتمه أبو فص أزرق في خنصره الأيسر وأوصى أمي ألا تكشف عن خصلة من شعرها في البيت أمام أبنائها لأن ذلك لا يليق بالمرأة المحصنة، خرج من البيت، يطلب الذهاب إلى السوق لشراء هدية لابنه الذي حفظ القرآن كله والأحاديث جميعها، ويصوم رمضان وغير رمضان، كان سعيدًا بهذه المهمة، لذلك أخذ يقرأ من سورة النساء، من أولها «بسم اللّه الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم». وراح يكتب حتى أنهى الصفحة الأولى وأنهى الثانية إلا سطرين، كتب فيهما: ولم يكمل أبي قراءة بقية السورة لأنه وصل إلى السوق.

اشترى الهدية لابنه ورجع إلى البيت.

سينما

وقف صبي بملابس رثّة بين الحاضرين، كنا في مقهى الجندول نتبادل آخر أخبار «شد الأحزمة على البطون» شعار الحكومة الجديد «للتغطية على فساد رجالها وتبرير أعمالهم»،وقف الصبي يستمع ولم ينطق إلا عندما قال له أحدنا: ماذا تريد؟

قال، أعطوني من مال اللّه، أنا وحيد، لا أهل لي ولا معيل.

بدا جيدًا على جعفر، أنه يحاول جاهدًا أن يتذكر أين رأى هذا الصبي سابقًا فلم يفلح، قال للصبي:

– لو كنت رأيت الفيلم العربي «زينب» لسمعت الممثلة راقية إبراهيم تقول «اللي ملوش أهل.. الحكومة أهله»، أنا رأيي يا عزيزي أنك تروح تلوي ذراع الحكومة وتقول لها: أنا ابنك فانظري في شأني ودقِّقي في حالي.

قلت: اسمع يا جعفر، لو كنت رأيت فيلم «الرجل الذي فقد ظله» لسمعت كمال الشناوي يقول «الحكومة ملهاش ذراع تتلوي منه.. وده آخر كلام عندي» لكن يبدو أنك ما رأيت هذا الفيلم! وقف الصبي حائرًا ثم قال: «وأنا لا أقول مثل الممثل أنور وجدي في فيلم «دهب» مع فيروز الصغيرة وإسماعيل ياسين وسراج منير وميمي شكيب، لا أقول: ماشي يا بني آدميين، عليه العوض ومنه العوض. لكني سأقول لمن هم أكبر من الناس كلهم:

إنكم تتبادلون فيما بينكم كلامًا أنا سمعته كله، أقل ما يقال عنه إنه يقودكم إلى السجن.

قال جعفر: تعالَ يا ابني، أنت ولد حباب ولا تحب الأذى لأحد، وما هذا الذي سمعته منا عن الحكومة إلَّا هزارًا نتبادله فيما بيننا. وأخرج من جيبه بضعة دراهم وقال: خذ فأنت تستحق كل خير. والتفت جعفر إلينا: أعطوه فهو ولد يستحق العطاء.

كما تحب

قراءاته الأولى وهو في الإعدادية، لأدب وشعر جبران خليل جبران، جعلت من الأستاذ حسن رومانسيًّا، فشعر جبران الغنائي مثل «أعطني الناي وغنِّي» وكتاباته الأخرى أخذت بلُبِّه، لأنها تعبر عن أحاسيسه الداخلية هو بالذات. وعندما درس الأدب الإنجليزي في الجامعة، أصبح الشعراء الإنجليز «الرومانسيون» لا يعلو عليهم أحد، لقد أثروا عليه وعلى حياته وطريقة تعامله مع الآخرين.

في بداية تعارفنا، بعد أن أنهى دراسته الجامعية، وصار مدرسًا في أحد مدارس مدينتنا الإعدادية، انضم إلى مجموعة من يلتقون كل ليلة في «نادي المعلِّمين» وأنا معهم، قلت له مرة: كيف توفق بين رومانسيتك، وبين ما أنت عليه في الحياة، مثلًا: البيت المتداعي الذي تعيش فيه، الذي لا أثر فيه لأي لون أخضر، لا تفتح فيه نافذة لأن الروائح الزنخة تنفذ إليك من الطريق القذر لتعشِّش في الزوايا، بكاء الأطفال وصراخهم العالي، الشجار الذي يتصاعد دائمًا من الجيران، بسبب أو بلا سبب، الرومانسية يا أستاذ حسن، تعتمد على عالم الطبيعة، والركون إلى أحضانها، واستشعار حنانها، وروعة جمالها، وكذلك مناجاتها، واعتبارها بمثابة الأم، هذه الطبيعة هي التي ألهمت جبران خليل جبران فقد عاشها في لبنان وعاشها في المهجر والتمس منها العزاء، فأين

هي الطبيعة التي تلهمك يا أستاذ؟ كنت أتناقش معه في أمور مثل هذه. وما توصلنا يومًا إلى نتيجة.

كنا نجلس في حديقة نادي المعلمين، هي ليست حديقة، لكنها أرض مستوية توزَّعت فيها بعض الأشجار ذات الأوراق المكرمشة، سألني:

– عندكم أشجار نارنج في حديقتكم؟

قلت: نعم أشجار نارنج وغيره.

سأل: وعندكم «شبو» بعطره الفواح؟

قلت: نعم وغير الشبّو أيضًا.

سألني: والجوري؟

قلت: عندنا بأنواعه وألوانه، وهو يحيط بمستطيل الأرض المزروعة بالحشيش الناعم.

قال: وبمستطاع المرء أن ينظر من هناك إلى السماء؟

قلت: ممكن.. ولغير السماء.

قال: هل يمكن أن أرافقك اليوم إلى البيت لأرى النجوم فوقي وأستمع لحفيف الشجر؟

قلت: لك ما تشاء، على الرحب والسعة.

غادرنا نادي المعلمين معًا، الشوارع ساكنة بعد منتصف الليل وما سمعنا صوتًا لمخلوق.

فتحت باب الحديقة الخارجي، وأخذنا ناحية اليمين، سرنا على الحشائش وكانت مبللة بالندى.

قال: اذهب أنت إلى فراشك واتركني وحدي هنا.

طلبت منه أن يدخل معي إلى البيت لينام تحت سقف غرفة الضيوف.

قال: وأنا رافقتك إلى هنا لأنام تحت سقف! ادخل واتركني وسط هذه الطبيعة، فوقي النجوم وحولي أزهار الجوري وأشجارالنارنج.

قلت: سأجلب لك ملابسَ للنوم وأجلب لك الفراش.

قال: أرجوك، تعال في الصباح، ولا تنس أن تعد لي فطورًا على مزاجك.

قلت: وهو كذلك، كما تحب.

جئته بالفراش وملابس النوم، فانطرح على الفراش وعيناه تتابعان منظر النجوم المعلقة فوق.

قال: أعطني الناي وغني.. رحمك اللّه يا جبران خليل جبران، لم ينشد أشعاره تلك اعتباطًا.

نظر إلى النجوم وكان لحاله، فميَّز درب التبانة، وعثر على بنات نعش، وعندما كان يبحث عن المشتري، خطف قط من جانب أذنه ووقف على مرمى حجر يتطلع إليه، قال في نفسه: هذا جزء من الطبيعة البكر، أخذ القط يموء وبعدها صاح على شكل نداء طويل، رفع رأسه، وعندما لمع ضوء خاطف على وجه القط، عرف أنه كان بعينٍ واحدة، قال: أيها الأعور النذل، لا تعكِّر علي ما أنا فيه. ماء القط ثانية، فردت عليه من هنا وهناك قطط أخرى، صاح فصاحوا وصاح فصحن، اختلطت موسيقا الكر والفر، الإقدام والتقهقر، هذا يريد وذاك لا يريد وتلك تريد وهكذا جرى الحال فما توقع الأستاذ حسن أن يحدث ذلك.

من شباك غرفتي، في الدور الثاني، أستطيع أن أتطلع إلى الشارع أمام البيت ومنه أيضًا أستطيع أن أشرف على باب

الحديقة مباشرة، أعتقد أني لم أنم تلك الليلة غير ساعة واحدة، جلست في الظلمة أقلِّب النظر فيما لو كان الأستاذ حسن يحتاجني في أمر أو حاجة، وفيما أنا كذلك، سمعت ذلك الباب، باب الحديقة يفتحه أحد ثم بعدها يقفله، فهرعت إلى الشباك والفجر ما كاد ينسج خيوطه البيِّنة بعد، لكني على ضوء مصباح الشارع الواهن رأيته، وقد صار على بعد خطوات من الباب فصحت:

– إلى أين يا أستاذ؟

رفع رأسه باتجاه مصدر الصوت وصاح: اللعنة على هذه الطبيعة وأمثالها!

قلت: والفطور؟

قال: قدِّمه للقط الأعور، ولا تنس (كما في الأفلام المصرية) أن تقول له «صباحية مباركة يا عريس».

حرامي رأس السنة الجديدة

في اليوم الأخير من ذلك العام، كنت عازمًا على السهر في مكان مع بعض الأصدقاء، لكني غيَّرت رأيي لسبب ما، في الثامنة مساء، قلت لعبد الجبار عباس: أتأتي معي؟ وافق من دون أن يسأل إلى أين، وعندما حركت السيارة أوقفني جعفر الزركاني قائلًا: وأنا معكما.

في الطريق أخبرتهما أن المهندس كامل دعاني بمناسبة رأس السنة للمجيء إلى بيته الذي على طريق ديوانية– حلة، ومع أني لم أعطه وعدًا مؤكدًا، لكني سأذهب. قالا: لا تتركنا ضائعين.

وصلت إلى ذلك البيت، فوصلني من وراء باب الحديقة صوت حاج علي وهو يغني: الليلة حلوة، حلوة وهنيَّة.

قطعت الأغنية بضغطي على هورن السيارة فهب من في البيت إلى الباب: باسم ونزار وحاج علي وحسن داحج وطبعًا كامل صاحب البيت، دخلنا فوجدنا كل شيء عامر على المائدة الطويلة. قبل أن يجلس عبد الجبار، غنَّى: هذا مو إنصاف منَّك/ غيبتك هالكد تطول/الناس لو تسألني عنِّك/ شرد أجاوبهم شكول؟

ملأ حاج علي كؤوسنا ورفع رأسه فبرق الضوء في عينيه الخضراوين وقال لجعفر غنِّ، فغنى جعفر: يا با يا با شلون عيون عندك يابا/ قلبي بغرامك مفتون واللّه يابا. وهي من أغاني المطرب «رضا علي» الجميلة.

بعد أن دارت الكأس، غنَّى عبد الجبار أغنية لنهاوند الشهيرة: اتدلل عليَّ اتدلل/ اتدلل عليّ اتدلل/ بس لا يا ولفي تزعل/ كل ما تريد اتمنى/ قلبي لو روحي أقبل/ تدلل عليّ اتدلل.

جاء كامل بـ«حمص بالطحينة» التي يحبها جعفر فغنى له أغنية نرجس شوقي: شدعيلك يا اللي حرقت قلبي/ كون ببلوتي يبلاك ربي/ سهران ليلك/ مهموم حيلك.

ملأ باسم كأس عبد الجبار فغنى لنجاح سلام: يا ريم وادي ثقيف/ لطيف جسمك لطيف.

قام كامل يفتح الباب فقد رنَّ الجرس وكان حارس المنطقة المخصص لحراسة بيوت المهندسين التي بيت كامل من ضمنها والحارس رجل كبير السن بان التعب في وجهه فما عاد قادرًا على حمل «الكلاشنكوف» على كتفه، طلب الماء فقد عطش وأراد سيجارة ليدخن، فأعطاه جعفر سيجارتين، وصبَّ له «الفودكا» فبدت كالماء، قال له: خذ يا عم، اشرب من مائنا فهو مفيد للعيون والمعدة والبواسير والكليتين، وإذا شربته ما من داعٍ تتربص للحرامي، لأنه هو من سيأتي إليك متضرعًا ويقول لك تعال امسكني أنا الحرامي.

شرب الحارس الكأس فأعطاه جعفر حبة باقلاء وأعطاه حمص بطحينة، وبعدها ذهب الحارس ليحرس.

غنَّيت لكارم محمود: أمانه عليك يا ليل طوِّل/ وهات العمر م الأول، ثم أغنية محمد فوزي: ما له القمر ما له/ ما جيناش على باله.

عندما اقتربت الساعة من الثانية عشرة، خرج كامل ليفتح

الباب فقد رنَّ الجرس. كان الحارس ثانية فقال: أريد أن أصلي صلاة الظهر لأني رأيت فوقي نجوم الظهر.

قال جعفر: لكن الظهر ما حلَّ بعد! تعال إلى الداخل لتشرب كأسا أخرى، فلا تغيب النجوم عنك.

شرب الكأس وخرج إلى الحديقة، سحب الكلاشنكوف من على كتفه، وأخذ يطلق الرصاص في الهواء، أول الأمر فرادى، ثم أفرغ مخزن الرصاص دفعة واحدة وهو يصيح: ماؤكم ولا جنَّة أهلي.

دفتر أرقام تلفونات حسين الحسيني

يعرف حسين الحسيني الأدباء والأديبات، ويعرف الناس جميعا ولا يفوته أحدًا منهم، وفي دفتر تلفوناته أسماؤهم وأرقام تلفوناتهم وأسماء غيرهم، رؤساء تحرير الصحف والمجلات، المحرِّرون والمحرِّرات، أسماء ممثلي المسرح والممثلات والمخرجين والمخرجات ومعدِّي البرامج ومذيعي نشرات الأخبار، كتَّاب السيناريو ومن يقفون وراء الكاميرا، يعرف الرسامين والرسامات، أسماء أصحاب دور السينما في بغداد، ومن يحضرون في عروض الأفلام، وأمسيات اتحاد الأدباء، وأسماء عمال البارات الذين كثيرًا ما يودعهم آخر الليل، أسماء سواق التاكسي في بغداد وقاطعي تذاكر ملهى «علي بابا» وغيره من الملاهي، ويعرف أصحاب مكتبات ومحامين معلمين وباعة في سوق «الشورجة» وسوق «الصفارين» ومدراء بنوك والعاملين في فروعها المنتشرة في بغداد، في دفتره أسماء أصحاب مقهى «المعقدين» و«ليالي الأنس» و«البيضاء» و«الخضراء»، في دفتره أسماء صيادلة وأسماء أطباء العيون وأطباء أمراض نسائية وأطباء بيطريين فأقول له:

– أطباء بيطريين يا حسين!

فيقول: الاحتياط واجب، ربما يمرض أحدهم.

زارني حسين في شقتي وكان الليل في أوله، جلسنا أولًا في غرفة المكتب فقلت:

– يا حسين دعني أكُن واضحًا معك: أنت شاعر وشاعر عاطفي جدًّا، فكيف يكون لك مثل هذا الدفتر الذي ما تركت أحدًا ولا مكانًا في بغداد إلا ورقم تلفونه معك، والمفروض أني لا أجد فيه إلا أرقام حبيباتك، وأنت دائمًا تقول مثل كبار الوجوديين «أنا هنا وليذهب الآخرون إلى الجحيم» والدفتر يثبت غير ذلك، يا أخي أنت شاعر ولست عامل في بدالة تلفونات.

بدا أمامي مفجوعًا بما سمعه، قال:

– وما العمل؟

قلت: اقضِ على الدفتر والعن اليوم الذي كبر وزاد في رعايتك.

جلبتُ وعاءً معدنيًّا وفتحت باب المكتب المؤدي إلى الشرفة وقلت: هات دفترك واتبعني، هناك في الشرفة أحرقنا الدفتر ورقةً ورقة، في البداية كان يفعل ذلك بقناعة ما بعدها قناعة لكنني على ضوء اللهب، لمحت أسفًا دفينًا سرى في زاويتي فمه بعدها نزلت قطرة من عينه عندما رأى أسماء الحبيبات تحترق!

بعد أقل من شهر، كنت حينها في حاجة ماسة لأن أتصل بأحدهم، سألت عن رقم تلفونه فما اهتديت، قلت لعلِّي أجده عند حسين الحسيني، وهو ليس ببعيد عني، هو في الطابق الرابع، في دار المأمون وأنا في الدور الثاني في مجلة الأقلام، فتحت باب غرفته وطلبت منه إن كان رقم ذلك الشخص عنده، فقال: عليَّ أن أبحث عنه، وفتح دفترًا وضعه أمامه وبدأ يقلب فيه، قلت:

– ما هذا الدفتر يا حسين؟

قال: دفتر تلفوناتي الجديد بدل ذاك الذي احترق.

وسَّع حسين من دائرة أرقام من يعرفهم، فراح إلى المحافظات والبلدات البعيدة يسجل أرقام من يعرفهم هناك، وإلى الدول العربية. كان دفتره ربما يضاهي أرقام «دليل التلفونات» في مجموع تلك الدول.

الكشك

من شباك غرفتي صباحًا، تابعت سير الاستعدادات لوضع هيكل ذلك الكشك الخشبي، عند سياج المتنزَّه، هناك كشك آخر قريب منه موجود منذ سنوات وصاحبه رجل طاعن في السن لا يرى جيدًا وسمعه ثقيل. في الظهر ذلك اليوم وأنا ذاهب إلى عملي بحكم دوامي الذي يبدأ ظهرًا وعند الكشك رأيت من مكاني رفوف الكشك قد نصبت، وانتبهت لرجل واقف داخله، رفع يده يحييني ومعها قال: تفضَّل يا أستاذ، تعال، لن تتأخر عن الدوام إذا ما شربت عندي شيئًا.

تركته مكتفيًا برفع يدي له. ما راق لي كلامه معي ولا دخل مخي، بهذه السرعة عرف أني مدرس وعرف الوقت الذي يبدأ فيه دوامي، فلا ينقصه بعد هذا إلا أن يعرف أين أذهب مساءً وغير ذلك!

عند الخامسة رجعت إلى البيت وعند الكشك رأيته واقفًا، فقال: اللّه يكون في عونك يا أستاذ، التدريس مهنة شاقة. غيَّرت ملابسي وأخذت قسطًا من الراحة بعدها خرجت. عند الكشك رفع الرجل يده وقال:

– تفضل أستاذ اشرب لك حاجة، عندي جميع المشروبات، تعال وصدقني لن تتأخر على «مقهى الجندول»، وحتى لو تأخرت

لن يزعل منك صديقك قاسم محمد ولا يزعل صلاح السعيد ولا موفق محمد ولا أبو زكي ولا... ولا... لم أجب وتابعت طريقي.

اضطررت بعد هذا أكثر من مرة أن أسلك طريقًا آخر وأنا في طريقي إلى الجندول لأتفادى اللقاء به، طريقًا يأخذ مني وقتًا مضاعفًا، وهذا ما فعلته، وليس هناك من حلٍّ غير هذا الحل.

عزمت على شراء سيارة رخيصة الثمن وتفي بالغرض، كانت بالفعل مصرية الصنع، للسيارة فوائد جمَّة منها أني أتفادى المرور مشيًا على الأقدام أمام الكشك وصاحبه عندما أخرج من البيت عصرًا بشكل خاص.

أوقفت السيارة أمام باب البيت ودخلت على أمل العودة إليها بعد حين لأمسح الغبار عن زجاجها وأبوابها وغير ذلك، في تلك اللحظة وأنا في البيت، ضرب جرس الباب، فخرجت أفتحه للقادم، وإذا به صاحب الكشك واقف أمامي وقد علت وجهه ابتسامة عريضة، على الفور قال لي:

– جئت أبارك لك سيارتك الجديدة، حسنًا فعلت، أنت والسيارة معك أفضل كثيرًا من الذهاب للكراج وركوب السيارات العامة إلى بغداد، ثم تنزل هناك لتأخذ باص مصلحة الركاب العمومي، إلى حيث تكون جريدة طريق الشعب، جريدة اليسار في العراق، الذين يأخذون الأوامر من الاتحاد السوفيتي.. لن تعاني بعد الآن، تستطيع أن ترجع إلى بيتك متى شئت بعد أن تقضي سهرتك مع الرفاق سامي محمد وسعدي يوسف وحسب الشيخ جعفر و... و...

حصان أسود

دفع أحدهم باب الكافتريا ودخل، تفحَّص الجالسين قبل أن يقع بصره عليَّ. في حقيقة الأمر، أتناول فطوري هنا قبل الذهاب إلى عملي، عادةٌ ما تخلَّيت عنها منذ أكثر من سنة وخلال هذه الفترة ما سبق لي رؤية هذا الذي دخل إلى الكافتيريا، تقدَّم ناحيتي وما ظل بيني وبينه غير الصحون التي على المنضدة، وبدل أن أسمع منه شيئًا أسرع بتوجيه ضربة مباشرة إلى فمي ما استطعت تفاديها، شعرت أنه أطاح برأسي، كان مذاق الدم بين أسناني عندما سقطت أرضًا. ساعدني بعضُ الحاضرين على استعادة توازني والرجوع إلى طاولتي مجددًا، بينما البعض الآخر مسح الدم عن فمي وجبهتي بمنديل ورقي، أخبرني بعض عمال الكافتيريا أنهم حاولوا الإمساك بمن اعتدى عليَّ لكنه اختفى، قال أحدهم: ألا تعرفه؟ هززت رأسي نافيًا فقال: إذًا، هو يعرفك. طلبت أن يتركوني في حالي ففعلوا، لكن أحدهم قدم لي كوبًا من القهوة ذاكرًا –في محاولة لإرضائي– أنه على حساب المحل فارتشفتها على مهل وأنا أستعيد ما جرى، لماذا اختارني دون غيري، يسدِّد إلى فمي قبضته؟

ما زلت أشعر بطعمِ الدم في فمي وبمقدمة أسناني تؤلمني لدرجة أني كلما أضغط عليها بأصابعي يزداد الألم. أنا في الحقيقة

لا مشاكل عندي، لكني حذِر جدًّا، أستطيع القول إني أستشعر المشكلة فأحلها قبل أن تقع، وبالنسبة لما حصل، كانت سرعة الرجل وهو يسدِّد قبضته فاقت حذري، المؤلم بالنسبة لي أيضًا ليس الضربة فهذه يمكن الشفاء منها مع الوقت، لكن قناعتي بأن الحذر لا يؤدي دائمًا إلى نتائج مضمونة العواقب. خرجت من الكافيتريا ومذاق الدم في فمي.

بدل أن أذهب إلى عملي ذهبت إلى مستشفى الأسنان التخصُّصي، أعرف طالبا في كلية طب الأسنان يتدرَّب هناك لعله يساعدني، بحثت عنه وأنا أقطع داخل المستشفى ممرات طويلة، سائلًا عن المكان الذي يتدرب فيه طلاب سنة التخرج من دون أن أشرح لأحد ما أعانيه في مقدمة أسناني، فشلت وما وصلت لمن أعرفه، لكني وصلت إلى إحدى غرف الفحص وقد توقف نزف الدم، سألتني الممرضة الجالسة وراء مكتب عند باب الغرفة عما أشكو منه، ففتحت فمي أريها موطن الألم، وأوضحت لها معاناتي من دون الدخول في تفاصيل ما حدث، سجلت الممرضة اسمي وعمري ونوع عملي على ورقة أعطتني إياها، وسجلت المعلومات نفسها في سجل أمامها قبل أن تشير لي بالجلوس على أحد الكراسي قربها، وأن أنتظر دوري، قلت: هل هناك أحد قبلي سيدخل غرفة الفحص؟ قالت: لا، ما إن تخرج المريضة داخل غرفة الفحص، تدخل أنت.

غادرت الممرضة مكانها وتركتني وحدي. كان باب غرفة الفحص نصف مفتوح مما أتاح لي رؤية طبيبة الأسنان منشغلة في معاينة فم الفتاة وقد استسلمت لها تحت النور المسلَّط على

فمها المفتوح، جلست الطبيبة على مقعد دائري مرتفع قليلًا دافعة خلفها بصدريتها المفتوحة ونصف جسمها العلوي ملتفًا في وضع جعلها تسيطر على ما هي منشغلة به، كان شعرها المنسدل يغطي خدها الأيسر فلم ألمح وجهها جيدًا، جعلني ذلك أفكر بوجه الطبيبة وأضع إضافات من عندي على ما خفي عني، لكن الصرخة التي علت قطعت تفكيري، واندفعت إلى داخل الغرفة وما استأذنت أحدًا، كانت الفتاة التي على كرسي الفحص شاحبة الوجه منكمشة خوفًا مما تراه أمامها، وقد أوقفت الطبيبة يدها التي ترفع إبرة التخدير، بدا واضحًا أن ما أوقفها بهذا الشكل هو الصرخة المفاجئة التي أطلقتها الفتاة، عندما أصبحت في وسط الغرفة أدارت الفتاة وجهها المتشنج نحوي وطلبت مني يائسة مساعدتها، فوجدت نفسي واقفًا بين الطبيبة وبينها، وضعت الطبيبة الإبرة جانبًا وانسحبت بحركة واحدة إلى حيث يقع مكتبها، جلست مرهقة وهي تنظر لي وللفتاة التي كانت تتشبث بي، وربما لأن الطبيبة وجدتني حائرًا لا أدري ماذا أفعل، نادت على أحد ثم طلبت مني مغادرة الغرفة، قالت الفتاة: لا تذهب، أنا معك. وتشبثت بذراعي. أحسست بها ترتعش، وقد رفعت بنصف جسمها فوق كرسي الفحص، قلت لأطمئنها: كل شيء على ما يرام، لا تخافي، أنت معي وأنا معك ونحن سوية. بدت الطبيبة منزعجة فاعتذرت لها وقلت للفتاة: لنخرج من هنا.

خرجنا معًا، أما الموضوع الذي قدمت من أجله فقد نسيته.

استعادت الفتاة هدوءها خارج المستشفى، كانت تتقدَّمني مما أتاح لي ذلك فرصة النظر إلى شعرها القصير ورقبتها ورشاقة

جسمها، والنظر إلى كتبها ودفاترها في حقيبة الجلد المفتوحة التي تحملها، سارت بجواري بعد ذلك، قالت وهي تلتقط أنفاسها: لا أدري كيف يكون مصيري لولاك، لقد أنقذت حياتي. وأمسكت بذراعي مجددًا، لم أسألها أين سنمضي معًا لأنني متأكد، عندما خرجنا من المستشفى أننا سوف لا نفترق. كنت مزهوًّا بفكرة أنني أنقذت حياتها، على الأقل سيكون هذا الشعور لكلينا بداية جيدة، قالت: كنت ذاهبة إلى الكلية صباحًا وما دار بخلدي أبدًا أنني سأدخل المستشفى الاختصاصي، فهذا بعيد عن مخططي، ما عانيت من ألم في أسناني ولا تسوس ولا أي شيء آخر، لكن الباص الذي أقلني توقف بشكل مفاجئ فاندفع وجهي إلى مسند المقعد الذي أمامي فضربته بمقدمة أسناني. وفتحت فمها لأرى مقدمة أسنانها. قلت لها: لم يكن ذلك سيئًا فقد كان السبب في وجودنا معًا. قالت: هل تعتقد ذلك؟ قلت: هذا مؤكد.

ابتعدنا عن المستشفى ونحن نسير باتجاه منطقة الميدان، ما فكرت بالذهاب إلى هناك لكن ما دامت معي تقبَّلت ذلك، فكرت أن نجلس في مكان هادئ، ولعلها توافق على الفكرة ما دامت في حالة تشجِّعها على البقاء معي، غير أن ما رأيته ونحن نطل على الميدان غيّر من رأيي. كان الناس يسدون منافذ الدخول إليه، وبينهم رأيت المراسلين الأجانب وكاميرات التلفزيون المحمولة، آنذاك طرأت لي فكرة أن أصحب الفتاة وندخل بين الناس في الميدان لنكون قريبين من الحدث، لا شك أنه سيعجبها وما عارضت.

علت أصوات المزامير وضربات الطبول من أماكن متفرقة، فابتسمت، قلت: سأريك الأعلام الخفاقة ومن تنكر بأزياء

المحاربين. فتتشبث بذراعي أكثر، تقدمنا إلى وسط الميدان، فالتصقت بي عندما أحاط الحشد بنا وأصبحت دائرة واسعة حولنا. وغير بعيد رأيت الكراسي قد صُفَّت في صفوف، بعضها وراء بعض، شغل الناس فورًا معظمها ونظروا أمامهم كما لو أنهم ينظرون إلى خشبة مسرح. توقفت الموسيقا فجأة، وسارع أحدهم يبعد بعض من كاد يلاصقنا، وبعدما اطمأن إلى ذلك مدَّ يده صافحني وصافح الفتاة، وبسبب الضجة قرَّب فمه من أذني وقال إنه انتظرنا طويلًا، قلت للفتاة إنها دعوة للمشاركة في الاحتفال. ما حسبت الفتاة لهذا الامر حسابًا، قلت لها: متى أردت المغادرة نغادر معًا. ولأني متأكد من ثقتها بي، ما انتظرت جوابًا على ما قلته، سار الرجل يفسح لنا الطريق إلى كرسيينا في المقدمة، سألنا: هل كل شيء على ما يرام؟ هززت رأسي بالإيجاب، أصبح بالإمكان رؤية ما يجري أمامنا جيدًا الآن، كنت سعيدًا برؤية أحدهم يمتطي ظهر حصان أحمر وفي الوقت نفسه يمسك بلجام حصان أسود بجانبه، انتبهت إلى أنه ينظر نحوي طيلة الوقت. ارتفع صوت الموسيقا فبدأ الحصان الأحمر يؤدي بعض الحركات مستجيبًا لما سمعه، حرَّك أطرافه الأمامية بالتناوب ورفع رأسه عاليًا وأنزله إلى أسفل، والرجل فوق الحصان ما أبعد نظراته عني، أشاح بوجهه مرغمًا عندما استدار الحصان إلى هذه الجهة أو تلك، ولكن سرعان ما عاد إلى وضعه السابق من دون أن يتخلَّى عن لجام الحصان الثاني، كانت صيحات الحشد تشجِّعه، والفتاة بجانبي تراقبه، وعندما توقفت الموسيقا سكنت حركات الحصان، صفَّق الحشد وصاح بعضهم: أحسنت،

أحسنت. طلب الرجل الذي يركب الحصان مني أن أجرب حظي بالصعود فوق ظهر الحصان الأسود، في البداية ارتبكت، وقلت: أنا أركب فوق ظهر الحصان! قال أسرع، تعال. فما توانيت ولا تردَّدت، أشار الرجل بيده وصاح: تعال. وربما أعطى إشارة معينة إلى من يعرفهم فارتفعت الموسيقا بالإيقاع السابق نفسه، لمحته يلكز بركبته وحذائه لكزات معينة استجاب لها الحصان، هكذا سارت الأمور. أسرع الرجل الذي كان في استقبالي بمد يد العون وأنا أضع قدمي اليسرى في الركاب، وعندما اطمأن إلى وضعي فوق ظهر الحصان سلَّمني الحبل وأمسكت باللجام، وعندما لامس حذائي بطنه وجدت نفسي مدفوعًا في الهواء قبل أن يخطو خطوتين، وقعت على الأرض وانقلبت مستلقيًا على ظهري، تشوَّش بصري وأنا أتطلَّع للسماء فوجدتها داكنة. تحلَّق حولي كثيرون، كانت الموسيقا عالية والأصوات شجعتني على تجربة حظِّي من جديد، لاح لي وجه من هو فوق الحصان الأحمر، وعندما التقت نظراتنا سألني عما حدث، رفعت أعلى جسمي وأسندت ثقلي على مرفقي فتراجع بعضهم إلى الوراء، آنذاك لمحت الحصان الأسود يتحرك بعيدًا وسمعت حمحمته المتقطعة عندما هز رقبته للأعلى والأسفل هزات متتالية، كان من دون سرج.

قلت: أرخى أحدهم السرج فوقعت.

قال: كان عليك فحصه بنفسك قبل أن تصعد.

وهز الحبل هزة خفيفة قبل انصرافه.

تذكرت الفتاة، لا أعرف اسمها ولا عنوانها، كنت أحتاج لمكان

أستريح فيه وقد أتناول وجبة خفيفة تسد بعض الجوع، وجدت نفسي عند واجهة تلك الكافتيريا التي حدث لي فيها ما جرى، فدخلت إليها.

كتبت عام 2001

من الطارق؟

فضَّلت السيدة هالكه ريشتر البقاء في غرفتها صباحا إلى آخر دقيقة متاحة لها، قبل أن تأخذ طريقها إلى الردهة رقم 8 في الطابق الرابع بمستشفى إليزابيث في مدينة «كولن» لتبدأ عملها في الوقت المحدَّد، تقع غرفتها في المبنى الملحق بالمستشفى، حيث تقع غرف غيرها من الممرضات، من اللاتي ترى الإدارة ضرورة عدم مغادرتهن مكان العمل إلا في الإجازات الأسبوعية وأثناء عطل المناسبات. قبل نصف ساعة استيقظت السيدة هالكه ريشتر من نومها، سار الوقت معها بشكل حسن، انتهت أخيرًا من ارتداء الملابس بعد أن دقَّقت في بياض بنطلونها فوجدته مقبولًا وربتت أناملها فوق ردائها الأبيض مستحسنةً هيأته، كان عندها نصف ساعة أخرى وهذا ما يجعلها مطمئنة أكثر إلى أن كل شيء يسير على ما يرام.

كانت ستارة النافذة الوحيدة منسدلة شفافة وناعمة، ومن خلف الزجاج السميك تتراءى بنايات المدينة العالية وقسم من برج تلفزيون كولن، كل شيء شجَّعها على تحضير كوب من القهوة تشربه قبل أن تخرج، ستترك أمر شعرها تمشطه فيما بعد، كذلك جوربيها اللذين وضعتهما على مسند الكرسي،

وحذاءها الملقى على جانبه بعد أن دفعته بعيدًا. جلست على طرف السرير، كانت تقلب صفحات إحدى المجلات وكوب القهوة على المنضدة عندما فوجئت بباب الغرفة يفتح وبرجل يلقي عليها تحية الصباح وهو يدخل بكثير من الضجة مع الأشياء التي أدخلها بعده، كان واحدًا من المنظِّفين الذين كثيرًا ما يتغيرون أو يتناوبون فيما بينهم ممن يأتون غالبًا بعد أن يفرغ المبنى من شاغليه، مع ذلك يحتاج الموقف أن توضح له أن ما فعله كان خطأ من وجهة نظرها، عليه أن يدق الباب عليها أولًا، فتقول: من الطارق؟ لكنها لم تقل شيئًا ولم تهبَّ معترضة، لم تكن في يوم ما من اللاتي يسمحن بأن يدخل عليهن أحد وقتما يريد، بالنسبة لها إن غرفتها هذه هي المكان الوحيد في المستشفى الذي يتوفر فيه طابعها الشخصي، لم يرها أحد وقد خلعت الدور الذي هي فيه وارتدت ملابس أخرى غير ملابس العمل، لم يرها أحد وهي تتصرف في غرفتها مثل أي واحدة أخرى بحرية تسمح لها بإلغاء دور المرضة التي في داخلها، هناك موقف واحد فقط عليها الآن فعله بعدما فاجأها الرجل بدخوله للدفاع عمَّا تؤمن به وهو أن تلبس جوربيها والحذاء وأن تمشط شعرها على عجل وتخرج، لكنه لم يعطها فرصة لأن تفعل ما تريد عندما ترك ما معه ونظر إليها، فأبقت رأسها أمامه مرفوعًا لا يرمش لها جفن، أما شعرها فقد انفكت عراه وسال على جانبي وجهها الذي بدا نحيفًا أكثر، كانت قد تجاوزت الأربعين، ومع أنها نحيفة الجسم لم يقل لها أحد إنها بحاجة إلى المزيد من الاهتمام بنفسها، ولكنها سمعت بعدما اقتضت بعض الظروف من يقول إنها جريئة ولا

ترضى بالخطأ، وتحسن التصرف ولا تطالب بما يخصها فقط، وعندها ولاء لمن يستحق الرعاية من أولئك المرضى الذين تحت إشرافها.

من النادر أن تنسى أسماء ووجوه من مروا عليها من أولئك، وبالنسبة للبعض منهم، كانوا يتصلون بالردهة رقم 8 ليطمئنوا إلى أنها لا تزال موجودة هنا كانت تصحِّح لمن يخطئ معلومة حدثت في المستشفى، وشجعت من ضعف الأمل عنده، رأى الآخرون نشاطها في مجال حقوق الأفراد، رغم أنها نادرًا ما تتحدث في هذا الموضوع يرون أيضًا أن نشاطها مقبولًا في الدفاع عن حق المرضى بتحديد وقت يسمح فيه لحيواناتهم البيتية بزيارتهم، فذلك يعود بالفائدة لكلٍّ من الطرفين، هم يرون اهتمامها بالأسورة والخواتم وأنواعها وأشكالها ومصادرها دليلًا على رقة فائضة في نفسها، علمًا أنها لا ترى ذلك في نفسها، فلم يحصل أن طوقت رسغها بسوار، على الأقل منذ أن عملت ممرضة، ولم تضع في إصبعها سابقًا غير خاتم الزواج.

قال الرجل: سيدة ريشتر، غرفتك بحاجة لأشياء تجعلها مريحة أكثر.

لا شك أنها عرفت من خلال الكلمات القليلة التي نطقها بشكل غير متقن أنه أحد المهاجرين الذين وجدوا لهم عملًا في هذا المستشفى، فضلًا عن لون بشرته الذي يشير إلى أنه قدم من إحدى بلدان الشرق الأوسط أو غيرها، ربما أرادت أن تقول له أرجوك، أنت بالذات لا تتحدَّث عن الذي يريحني، لكنها لم تقل شيئًا.

– هذه الإضاءة، كيف تستطيعين القراءة على ضوء المصباح المنضدي، لقد طلع النهار، ألا ترين مثلي أن الضوء الذي يدخل من النافذة أكثر جمالًا وفائدة.

– أعرف، لكني أفضل أن تكون الأشياء في غرفتي كما أريد.

– هذا مؤسف سيدة ريشتر، أين مفرش الأرض بلونه الأزرق الفاتح الذي تفضِّلينه، وورق الحائط هذا، لماذا لا يتغير بعد أن تهالك من شدة القدم، أليس من المناسب للسرير أن يكون في الجهة الثانية بدل موقعه الحالي؟ وإذا دفعت المنضدة هذه الكراسي إلى مكان قريب من النافذة ألا يعطي ذلك الإحساس لمن يدخل الغرفة مثلي بأن المكان صار أكثر اتساعًا؟

– شكرًا لاهتمامك، الأزرق الفاتح لون جميل، هو لون مفرش الأرض في منزلي.

– يمكنني أن أحضر لك بعض النباتات الخضراء وبعض شتلات الورد لو طلبت مني ذلك، فالغرفة خالية منها.

– في الوقت الحالي لا أريد.

– امرأة مثلك لها منزلها الخاص في مدينة «ديورن» تستطيع أن تصل بالفولكس فاكن التي عندها بأقل من ساعة، منزل لا تنقصه وسائل الراحة، امرأة تعرف ماذا يريد منزلها لأن يكون أجمل منزل، كيف تقنع بألَّا تطل غرفتها التي في المستشفى على نافورة مثل تلك التي عندها في الحديقة؟ كيف لا تكون الستارة التي هنا نازلة من فوق على النافذة كما هناك؟

أرادت أن تعقِّب على ما سمعته لكن الدهشة أوقفتها ذاهلةً دون حراك، أن يعرف هذا الرجل الذي تراه لأول مرة اسمها وقد ذكره

أمامها أكثر من مرة فهذا أمر طبيعي، ربما قرأه على اللوحة المعلقة بجانب الباب، لكن هذه المعلومات الخاصة التي لم يكن فيها خطأ من أين له الحصول عليها؟ من أين له هذه المعلومات عن المنزل الذي في «ديورن» والنافورة التي في الحديقة، وشكل الستائر؟ ولم يبق إلا أن تسمع منه شيئًا عن الصفحة التي انطوت من حياتها، والتي عاشتها في ذلك البيت قبل عشرين سنة، في بداية عملها ممرضة في مستشفى إليزابيث بعدما أصبحت الحياة مع زوجها لا تطاق فانفصلا عن بعضهما، ترك لها المنزل واختفى من حياتها نهائيًّا، سمعت فيما بعد أنه كوَّن أسرة ثانية في غرب البرتغال، وفيما بعد سافر إلى جنوب البرازيل وكوَّن له أسرة ثالثة، وبينما كان هو يتنقل بين هذه الدول استطاعت هي أن ترجع الحياة للمنزل الذي تهاوت أركانه، تعطيه رعايتها كلما أتيحت لها فرصة الذهاب إليه، ربما نهاية كل أسبوع، أخذت تقلع الحشائش كلما نمت في أحواض الورد، وتقطع الفروع التي لا أمل من ورائها في بعض الأشجار، بعد ذلك بسنة اشترت ستائر جديدة، وبعدها بسنتين أنشأت نافورة في الحديقة، تستطيع من غرفة نومها رؤية تدفُّق الماء في مفاصلها. كانت مقتنعة أنها استطاعت مع مرور الوقت أن ترى في شفاء المرضى راحة له.

مرت لحظات، انتظرت من الرجل أن يبدأ عمله، أن يشغل المكنسة الكهربائية مثلًا، أو يبدأ بالحمام الملحق بالغرفة لكنه قال وهو يلاحظ المجلة التي تركتها على المنضدة:

– أنا في حيرة، ماذا يمكن أن تقرئي هنا، ما هذه التي تشغلك عن أشياء أخرى كثيرة؟

لم تصدق أنها كانت تسمع منه ذلك، فقالت:

– أنك بالتأكيد لا تعرف ما تقول وربما تجهل الحدود التي يجب أن تكون بين كل شخصين لا يعرفان بعضهما.

– أرجوكِ دعيني أوضح لك موقفي من هذه الأشياء.

– أنا التي أرجوك، ليس لدي الكثير من الوقت لألتحق بعملي.

تقدم الرجل إلى الكرسي يسحبه قليلًا ويدعوها للجلوس، أرادت أن تثنيه عن عزمه لكن بات واضحًا أنه لا يريد أن يسمع منها اعتراضًا، بل كان مصممًا على أن تجلس لتسمعه، وعندما لم يعد لديها القدر الكافي من قوة التحمل، طلبت منه وبرجاء أن يغادر الغرفة إلى أي غرفة أخرى، ثم يعود إليها فيما بعد بعدما تكون قد هيأت نفسها للخروج، ليست أكثر من عشر دقائق على أكثر تقدير. مع ذلك، عندما خرجت من الغرفة بعد عشر دقائق، شعرت أنها ليست غاضبة من تصرفه معها، وستنسى الأمر رغم ما فيه من غرابة، وفي الوقت المحدَّد كما في كل يوم وصلت إلى الردهة.

بعد ذلك حدثت هناك تطورات أخرى، عندما عرفت من زميلات لها يسكنَّ مثلها في المبنى الملحق بالمستشفى، شيئًا عن ذلك الرجل الذي دخل عليها في الغرفة، سمعت من إحداهن بعد يومين من هذا الذي حدث، أنه أعطى الحق لنفسه في أن يفتح دولابها الشخصي بحضورها وراح يقلب في الملابس المعلقة، مبديًا رأيه في ألوان الفساتين وموديلاتها وأنها راحت تجادله وتخالفه الرأي أو تؤيده، لكنها توصلت معه إلى حلول وسطى بهذا الشأن، وقد قالت لها زميلة أخرى إنه فتح أحد أدراج دولابها وقلَّب في

حمَّالات صدرها وجواربها وما فوق الجوارب، كان منها ما هو ملفوف بعضه ببعض على طريقة من تنتزعها وترميها في الدرج كيفما اتفق، فأبدى لها انزعاجه من أن تترك مثل هذه الأمور بهذا الإهمال، وقد شكرته لأنه بذل مجهودًا لإعادة النظام إلى الدرج وأصبح كل شيء من ذلك في مكانه الصحيح.

تسمع عن ذلك الرجل مثل هذه الأخبار وغيرها كل يوم، تنقلها إحداهن بشيء من العرفان بالجميل لذلك الذي أدخل في حياتها هنا في المستشفى بعض الأمل، وقد تسألها تلك: ألم يأت عندكِ ليقلب في أدراجك؟ فتسكت.

أخذت تنتظره كل صباح كانت على استعداد لأن تجلس على الكرسي كما طلب منها، لكنه لا يأتِ، ترجع ظهرًا إلى غرفتها فتجدها نظيفة مرتبة، لم يكن يهمها أن تراها كذلك بقدر ما كانت تريد التأكد من أنه مرَّ بها، وليس أحد غيره، حاولت أن تفاجئه في غرفتها عندما انتهزت أكثر من فرصة لتذهب إلى هناك أحيانًا في العاشرة صباحًا أو بعدها، لكن محاولاتها باءت بالفشل، أحيانًا ترى أنه لم يصل بعد أو أنها وصلت إلى غرفتها متأخرة.

انتهت السيدة هالكه ريشتر إلى أن مزاجها أصبح متغيرًا، من مظاهر ذلك أنها لم تعد تثق بقدرتها على اختيار الملابس وأنواعها وموديلاتها، من تلك التي تشتريها من المحلات عندما تغتنم فرصة استراحة تكفي للتسوق أثناء العصر، علمًا أنها لا تحتاج إليها إلا في حالات مغادرتها المستشفى، اشترت في هذه الفترة القصيرة ثلاثة أو أربعة فساتين ولم تكن تفعل مثل ذلك من قبل، وأكثر من هذا العدد بنطلونات وقمصانًا، وقد ضمت

إلى مجموعتها هذه أنواعًا من الشالات بألوان وأحجام مختلفة منها ما هو مصنوع من الحرير ومنها من الساتان أو غير ذلك، ودائمًا أصبح قلقها من أن هذه الأعداد ربما لا تكفيها لأن تملأ بها خزانة غرفتها والأدراج، وقد كانت تتقصد أن تضع فيها قطع ملابسها الداخلية كيفما اتفق.

كل تلك البهجة التي تأتيها من وراء هذه الأفعال لا تعرف طريقا إلى صدرها.

قبل أن تأوي إلى فراشها، كانت تنظر لكل ما اشترته وقد فتحت أبواب خزانتها والأدراج ولا تدري هل سيحالفها الحظ غدًا، هل يأتي ويفتح ويعبث ويبدي رأيه في هذا الشيء أو ذاك، اضطرت أيضًا إلى شراء ما لا يعجب أحدًا ولا يرضي ذوقًا، وقد دفعت مقابلها النقود راضية، فهل ستسمع منه تعنيفًا لهذا الذي فعلته بإيقافها عند حدها. وفي الصباح تجلس على طرف سريرها يائسة تقلب صفحات إحدى المجلات وكوب القهوة برد على المنضدة، وأذنها على الممر، تريد التقاط أية حركة اقتراب من باب غرفتها. وفي الردهة عندما تذهب لا تكاد تتحرك هناك إلا في حدود ما هو مطلوب منها، لم تكن متفائلة ولا متشائمة، وقد بدا لها أن ليس من اللائق ولا حتى من السليم أن يظهر عليها ما يثير شك أحد، أو أن الأفكار قد تذهب بها بعيدًا، لم تنزل من عينيها دمعةٌ واحدة ولم يهتز صدرها لقوة النشيج الذي اجتاحها أحيانًا، مع أن صبرها كاد ينفد، لماذا يفعل بها ذلك، وما الذنب الذي اقترفته هل اقترفت جريمة بحقه عندما لم تلبِّ طلبه في الجلوس؟ عليه أن يعرف الآن أنها مستعدة أن تجلس.

هل الأخريات بأفضل حال منها وقد حظين بكل ما سمعته منهن عنه؟ كانت على يقين أنها سوف لا تفتح له الخزانة فقط إذا طلب منها ذلك، وإنما مستعدة لعمل التغييرات التي اقترحها في الغرفة، متى إذًا سينظر في ملابسها المعلقة ومتى سيقلب بأطراف أصابعه ما هو ملفوف بعضه ببعض في أدراج الخزانة قبل أن يضمَّه بحنان إلى بقية ما في المجموعة؟

أوت هالكه ريشتر إلى فراشها لكن النوم بعيد مناله، وكانت قبل ذلك قلبت في كل ما اشترته، أحيانًا وهي بهذه الصورة تسمع صوت خطوات من كنَّ عائدات من نوبتهن الليلية إلى غرفهن، بعض من تلك الممرضات عندما يلوح لهن نور غرفتها مضيئًا أسفل الباب يهمسن لبعضهن: يبدو أن السيدة العجوز لم تأوِ إلى فراشها بعد.

صندوق مارتينا

غادر مصطفى ومن كانا معه المصعد الذي توقف في الدور الرابع، وقد أحاط جميعهم بالنقَّالة يدفعونها أمامهم، قطعوا الممر الذي واجه باب المصعد عابرين الأبواب التي تقع على جانبيه من بينها باب الصيدلية المفتوح، ومن دون أن يقف ألقى بالتحية: يوم سعيد آنسة مارتينا.

من داخل الصيدلية تمنَّت مارتينا يومًا سعيدًا له أيضًا بصوت سمعه مصطفى جيدًا، بالرغم من أنه ابتعد عن الباب المفتوح، سمع بعدها أيضًا التأكيد على أنها ستمرُّ عليه فيما بعد. قبل قليل سمعت مارتينا صوت دواليب النقالة خارجة من المصعد، سماع ذلك الصوت يعني أنها ستسمع أيضًا صوت مصطفى بعد لحظات يسلِّم عليها. كانت تعرف أنه سيفعل ذلك ما دام باب الصيدلية مفتوحًا، ألفت مارتينا سماع صوته في اليومين الأخيرين، وفي مثل هذا الوقت وأوقات أخرى أيضًا، كل مرة يعني الصوت لها: أنا موجود إذا كنت في حاجة لي، اطلبي مني شيئًا وسترين كيف يكون عندك حالًا. لم تسأل نفسها لماذا يسلِّم عليها بالذات ولا يسلم على زميلتها في العمل، من جانبها لم تهتم بهذا الموضوع كثيرًا، كما لم تعطِ اهتمامًا لموضوع النقالة، ومن هم أولئك الذين يُنقلون فوقها، ممن فارقوا الحياة، لتأمينهم في

الثلاجة ريثما يأتي مَن يتسلَّمهم من أفراد أسرهم أو ممن يهمهم الأمر.

طلبت مارتينا من مصطفى المساعدة منذ أن تعطلت الثلاجة الصغيرة الموجودة في الصيدلية قبل يومين، فلم يعد هناك ما تحفظ فيه العصير الذي تجلبه معها ليبقى باردًا، فضلًا عن لفائف الأكل الذي تتناوله في استراحة منتصف النهار. لم يسألها مصطفى هل أخبرت إدارة المستشفى بالخلل الذي حصل أم لا، بل اقترح عليها فورًا حفظ ذلك في واحدة من الثلاجات التي تقع في مسئوليته، فغالبًا ما يكون بعضها غير مشغول، ريثما يتم إصلاح العطل في ثلاجة الصيدلية أو استبدالها بواحدة جديدة، كان عليها أن تعترف أنها أصبحت تشرب العصير مرة بعد مرة، فكلما سمعت صوت دواليب النقالة شعرت بالعطش، وكلما سمعت صوته سارعت إلى ما يروي ظمأها لتشرب، أصبحت تشعر أنها لم تعد معزولة في مستشفى يوحنا بمدينة بون، وكل ملابسها بيضاء، القميص والبنطلون والحذاء، مفروض عليها عدم التحرك إلا بالكاد، فمدير المستشفى كان قد أبدى استعداده لفرض عصا الطاعة على العاملين جميعًا بشأن عدم إضاعة أيِّ وقت هو ملك للمستشفى إلَّا في حدود ضيقة جدًّا، وبشأن الملابس الموحَّدة لكل فئة تعمل ابتداء من الأطباء إلى من يعملون في التنظيف، لذلك لم تتعرف إلَّا على القلَّة منهم، وهؤلاء لم تتعرف من خلالهم ولو بصوت غير مسموع على تفصيلات من أحداث دارت في المستشفى، أبطالها أطباء أو ممرضات أو مرضى راقدون على أسرَّتهم في ردهات وصالات العمليات، سواء من

المواطنين الذين يحق لهم الإدلاء برأيهم وصوتهم في صناديق الاقتراع أو من الغرباء، من المهاجرين وطالبي اللجوء من النساء والرجال، ممن يتكلم بلغة ألمانية سليمة أو من ينطق بها ركيكة أو ممن لا يتكلم بأكثر من لغته الأم.

بعد عشر دقائق لحقت به في الثلاجة، فتحت الباب ودخلت، وجدت مصطفى بردائه الأخضر، جالسًا إلى المنضدة المستطيلة التي تتوسَّط المكان، يتناول فطوره، استطاعت أن تشمَّ رائحة القهوة مع البخار المتصاعد من الكوب. كانت هناك ثلاجة في الجهة المقابلة للباب تكاد تصل إلى أعلى قامة المرء فيها ستة عشر بابًا، ولكيلا تشغله، أبدت استعدادها لوضع الزجاجتين بنفسها، مدَّت يدها إلى واحد من هذه الأبواب تريد فتحه فقال محذِّرا: لا، هذه مشغولة. أرادت أن تفتح بابًا آخر مجاورًا له فقال: هذه أيضًا مشغولة، وأشار بأصبعه: تلك فارغة.

قالت: رقم 7.

أخذ رشفة من الكوب وقال: لا، رقم 5.

طالعها منظر القدمين المتجاورتين، وثمة ورقة صغيرة معلقة بإبهام اليسرى، فيها معلومات مدرجة، عادت على الفور وأغلقت الباب، قال لها: إذًا رقم 7، افتحي الباب من فضلك.

وضعت الزجاجتين في تجويفها الفارغ البارد العميق، وعاد كل شيء إلى وضعه السابق. في هذين اليومين كان مصطفى قد عاش معها قصة هروب عائلتها من رومانيا في أواخر السبعينيات، هربًا من بطش شاوشيسكو وزوجته ومساعديه في الحزب، الذين كانوا على رأس السلطة، كان عمرها آنذاك ثلاث

سنوات. وعرفت أنه مهاجر مغربي عبر جبل طارق في زورق يضم أكثر من أربعين شخصًا، عربًا وأفارقة، بعضهم في عمر عشر سنوات مثله، وآخرون في أعمار مختلفة، بعضهم اجتاز سن الخمسين، في إسبانيا ألقي القبض عليه واحتجزته الشرطة خمس ليال بتهمة الهجرة غير الشرعية، بعدها استطاع الخروج من إسبانيا بصحبة اثنين من الشباب المغاربة، تركاه عند الحدود، وفي رحلة مع عائلة برتغالية امتدت قرابة أسبوعين، من تغيير وسائط النقل والتخفي عن أنظار من يمكن أن يأتي لهم بالمتاعب وصلوا إلى فرانكفورت، وهناك فارقهم لكي توصله القطارات إلى بون، وفيها التقى بالشخص الذي قطع كل تلك المسافة ومرَّ بتلك الأهوال من أجل اللقاء به، وتسليمه الرسالة التي حرص على ألا تضيع منه، وفيها توصية من ذويه بمدِّ يد المساعدة لهذا الصبي، فعائلته ترتبط معهم بعلاقة قرابة. كان ذلك قبل ثمانية عشر عاما. عرف منها أنها وقعت في حب شاب قدم من الإكوادور في أمريكا الجنوبية يدرس الرياضيات في جامعة بون، في الوقت الذي كانت تدرس فيه علوم الصيدلة، حين كانت تذهب إلى سكنه الصغير يترك لها الحمَّام بعد أن يغتسل دون أن يفكر بتنظيفه، كذلك أواني الطبخ وأدوات الطعام لتنظِّفها. لا شعوريًّا، كان يريد منها أن تتحرك لكن خلفه، حاولت أن تستمر معه بالرغم من أن العلاقة بينهما امتدت لشهور عدة، من جانبها بذلت ما بوسعها لتحسين سلوكه، لكنه رفض المساواة. كلَّمته فلم يؤدِّ ذلك إلى نتيجة، انفصلت عنه بعد أن أمضيا فصلًا دراسيًّا كاملًا معًا، وقد حصل أن التقت به مرة أو اثنتين لكنها حسمت أمر الابتعاد

عنه مع أول فرصة عمل توافرت لها في هذه المستشفى ومكانها موجود في صيدليتها. عرفت منه أنه خلال السنوات التي مرت به، درس إلى المستوى الذي أهَّله للدخول في مركز للتدريب المهني فتلقَّى فيه تعليمًا مكثفًا للقيام بمثل هذا العمل الذي يمارسه الآن. عرف أنها تستمتع بهوايتها كما يحلو لها، في مقدورها أن تستقل سيارتها وتذهب إلى أي شخص، مهما كلَّفها ذلك من وقت وجهد، من أجل دودة يحتفظ بها لها، أو شرنقة تدلت في خيط معلق بغصن، لتأتي بها وتضمها مع غيرها في صندوقها الزجاجي على طاولة في زاوية غرفتها، كثيرًا ما تمتِّعها مراقبة التغيُّر الذي يحصل في صندوقها يوميًّا، من دودة تزحف على غصن، إلى شرنقة، ثم فراشة بجناحين رائعين بمختلف الألوان والأشكال والأحجام، شيء رائع وحيوي.

ينحصر عملها في تجهيز الطلبات من الأدوية التي تقدَّم للمرضى الراقدين في المستشفى، ومراقبة سير عمليات دخول الأدوية وخروجها من الصيدلية على جهاز الكمبيوتر وتسجيل الملاحظات والأرقام، وهذا يدخل في اختصاصها أيضًا. وإذا وجدت وقتًا، تتصل تلفونيًّا بمن تعرف لطلب مساعدته من الجيران وغيرهم، قسم منهم يقوم بدراسة للنبات أو بزرعه، آخرون يعملون في المستودعات والأرشيف، طلاب أو طالبات باختصاصات مختلفة، قسم منهم عندهم أشجار في حدائق بيوتهم وآخرون يسكنون في أماكن قريبة من الغابات تطلب منهم إذا ما وجدوا دودة تزحف أو شرنقة تتدلَّى أن يحتفظوا لها بالغصن أيضًا. ومن جانبهم لم يسألها أحدهم عن نوع الأشجار

التي تريد منهم أن يفتِّشوا فيها، فهم يعرفون أنها تريد منهم الإسهام في موضوع هوايتها. أحيانا كان هناك مَن يخبرها أنه وجد لها ما تطلبه وأنه يحتفظ لها بدودة أو شرنقة وربما أكثر من ذلك، كانت تفرح وتشكره، وتَعدِه أنها ستمرُّ به بعد الانتهاء من العمل، وتفعل ذلك. أحيانًا تضطر لأن تعيد على بعضهم ما سبق أن قالته عن قلقها من ندرة الفراشات هذا الربيع، فمنذ بدايته إلى الآن وقد قارب على الانتهاء، لم ترَ منها إلَّا أعدادًا لا تطمئن إليها، إنها تخاف عليها من الحشرات مصاصة الدماء والقراد والمبيدات التي لها القوة على الفتك بها. كل ذلك ولم تطلب من مصطفى إلى هذا الوقت أن يساعدها في هذا الموضوع، ربما لو طلبت منه ذلك سيجد الوقت للبحث معها في أشجار الحدائق والغابات، أثناء أيام الإجازات، عما تريد أن تودعه في صندوقها الزجاجي. كثيرًا ما يحدث أنها بعد الانتهاء من عملها تخرج مسرعة من المستشفى محاولة الاستفادة قدر المستطاع مما تبقى من النهار، تقود سيارتها إلى مكان ذلك الذي اتصل بها، لأخذ ما كان وعدها به، كانت تحاول أن تجعل من تلك الساعات شيئًا حقيقيًّا، يعطيها شعورًا بالراحة التامة مهما كانت النتيجة، كان ذلك يأخذ منها أحيانًا أكثر من ساعة للوصول إلى المكان، وساعة أخرى للوصول إلى البيت، سترفع بعد ذلك القماش المشبّك عن أعلى صندوقها الزجاجي، لتودع فيه ما جاءت به، كل ذلك يحتاج إلى وقت طويل، تنظر فيه إلى الدود وهو ساكن أو زاحف على الغصن أو يقتات من الأوراق، تراه يتحرك ويقضم بنعومة وظهره أملس وأرجله كثيرة تتحرك جميعها في آن واحد،

كان لونها يتطابق مع خضرة الأوراق بشكل كامل، تنظر إلى الشرانق المتدلية بخيوط لا تكاد تراها من الغصن، أحيانًا إذا وجدت فراشة قد أخرجت رأسها من الفتحة الحريرية يأخذها الحماس فتبدأ بالضغط الخفيف على محيط الشرنقة حتى تُخرج الفراشة رأسها أكثر، تفعل ذلك بشكل مدرَّب لو فعله غيرها لقضى على الشرنقة، أحيانًا إذا وجدت فراشة كاملة تحرَّرت من شرنقتها خلال النهار وهي بعيدة عنها تأخذها برقة من أسفل ظهرها لئلا تؤذيها، فتضرب تلك الفراشة بجناحيها مرتين أو ثلاثًا ثم توقفهما متلاصقين، وتقوم إلى نافذة غرفتها تفتحها فتأخذ الفراشة تتفحص محيطها بعد أن أصبحت في الخارج بقرونها الاستشعارية، كأنها لا تصدق حظها الحسن وتطير مرفرفة بجناحيها، كأن عبير الحديقة التي دخلت فيها والأزهار من كل نوع وابتسامة الربيع في مدينة بون جعل الفراشة تتوجه وحدها إلى الدنيا دون وجل.

وقف مصطفى يتحدَّث معها عند باب الصيدلية، جلب لها واحدة من الزجاجتين الخاصتين بها، وقد برد العصير فيها، من جانبه قدَّر أنها بحاجة إليه بعد أن انتصف النهار، أثناء ذلك دعته مارتينا إلى منزلها ليرى بعينيه الدود والشرانق وكل ما يحويه صندوقها الزجاجي، ولم تجد لديه مانعًا، فطلبت منه أن يحدِّد لها الوقت فقال لها في أقرب فرصة، اليوم إذا شئت. اتفقا على الذهاب معًا بعد الانتهاء من الدوام. عندما ذهب مصطفى نظرت إلى ملامح زميلتها في العمل، كانت قد اختلجت من دون أن تتحكم فيها وقالت غاضبة: إذا كان يسرك الحديث مع مثل هذا

النوع من الناس تستطيعين ذلك بعيدًا عن الصيدلية، هنا الأمر مختلف. ثم انفجرت في فورة شتائم على مثل هؤلاء الذين تراهم كل يوم يملأون أماكن العمل والطرقات. قالت لزميلتها: اهدئي، سيكون كل شيء على ما يرام، لن يأتي ثانية لو شئت.

غيَّرت مارتينا ملابسها بعد انتهاء يوم العمل، لبست بلوزة زرقاء فاتحة وبنطلون جينز، ولمّت شعرها خلف رأسها على شكل ذيل حصان طويل ورشيق يهتز مع حركتها، وفي موقف السيارات انتظرت قليلًا قبل أن ينطلقا معًا. لم تمرَّ على أحد من معارفها لتأخذ منه دودة أو شرنقة رغم أن مصطفى أبدى عدم ممانعته لو شاءت ذلك لكنها قالت حازمة: لا، سنذهب إلى المنزل مباشرة. تبدو مارتينا سعيدة بهذه الرفقة، ومتعجلة للوصول، عندما خرجت من محيط المستشفى قالت: سترى كيف تفرد الفراشة جناحيها بينما جذعها يئن تحت لأنه لم يغادر الشرنقة بعد، انتبه للون الجناحين وشكلهما، وكيف تنهض بهما وجسمها لم يكتمل بعد. قال لها: أرجوك مارتينا، أغلب هؤلاء الذين يؤتى بهم إلى الثلاجة انتهت حياتهم في حوادث على الطرق السريعة، هذا ما يحدث غالبًا، أو بحوادث أخرى يصعب معها إنقاذهم لأن مَن رافقهم إمَّا وصل المستشفى ومن معه كان في رمقه الأخير، أو فارق الحياة بالفعل، فالعمليات الجراحية التي يقوم بها الجراحون لا تؤدي غالبًا إلى الوفاة، لا كسور العظام ولا إصابات الحروق من الدرجة الثانية ولا عمليات العين والأنف والأذن والحنجرة تؤدي إلى الوفاة، بعض أولئك ماتوا على أرض ليست أرضهم.

قالت أبوها مات على أرض ليست أرضه تاركًا أمها وحيدة الآن في البيت، رحل والدها عن رومانيا مضطرًّا، وبالقياس لمن لم يخرج يُعتبر محظوظًا لأنه استطاع إنقاذ نفسه وعائلته من الهلاك، لكن بدأ إحساسه بافتقاد بوخارست لحظة أن داست قدماه الأرض الألمانيَّة، سكنته بوخارست أينما ولّى وجهه: قرب الراديو، عندما يشرب النبيذ، عندما يواجه الراين، عندما يرى القطارات تخرج من المحطة، كثيرًا ما كان يضرب الأرض تحته ويقول: لا، هذه ليست أرض رومانيا.

مصطفى لا يزال يتكلم عن أولئك الذين يُؤتى بهم إلى الثلاجة، المشكلة بالنسبة له تتحدَّد في أسفه على من هم في مقتبل العمر أو فيمن هم أقل من ذلك، عندما يريد أن يحضر مراسم دفنهم لا يستطيع، فوقت العمل لا يسمح له، بالرغم من أنه اتفق مع ذويهم على ذلك، وقد أعطوه العنوان والوقت. تسبح مارتينا في أفكارها تحاول ما استطاعت ألا تستمع إليه: كانت تسمع من أمها الكثير عن رومانيا أيضًا، في ذلك الوقت كانت تهتم بهذا الموضوع كثيرًا وتطلب منها أن تتكلَّم أكثر، لكن عندما لم يعد هناك ما يُعين أمها على تذكُّر شيء من ذلك توقفت، هكذا وصل حال أمها بعد أن تفرَّق العدد الأكبر من عائلتها في بلدان أوربا، ولم يعد لأمها غير ذكرياتٍ ضئيلة ومتفرِّقة وأوجاع غربة ترددها كأثرٍ لماضٍ مفقود.

قال مصطفى: تلك التي فتحت عليها الباب في الثلاجة رقم 5، مسكينة، بطاقتها تقول إنها من ألبانيا وإنها هنا منذ أكثر من خمس عشرة سنة. إن الذي يقلقه أيضًا أن أحدًا لم يأتِ لتسلُّمها لحد الآن، مع أن إدارة البلدية في المدينة تعهَّدت بأنها سوف

ترسل سيارة لأخذها في ظرف يومين، لكنهم لم يوفوا بالعهد، فيجب متابعة هذا الموضوع في الغد.

بعد عشرين دقيقة، أفسحت له طريقًا للدخول إلى المنزل، كانت أمها تجلس على كرسي في الصالة، وقد نأت بنفسها بعيدًا، مغمَضة العينين وقد سرحت ذراعيها على فخذيها، وحين اتضح لها صوت ابنتها قالت: هل عدت؟ والتفتت لتقبلها مارتينا على جبينها قبلة خاطفة وقالت لمصطفى: هي كذلك، أحيانًا تنام وهي جالسة، لقد أدركت الشيخوخة مصحوبة بما يشبه فقدان الذاكرة. أحيانًا عندما تعود إلى المنزل لا تتعرَّف عليها أمها، قد تخلط بينها وبين كاترينا أختها التي تزوجت في البرتغال، أو بينها وبين نيكول أختها التي تزوَّجت في السويد، وعندما حدث أن جاء معها ذلك الشاب الذي من الإكوادور، ظنته أخاها الذي في أمريكا. قال: يعني هذا أن على كل شخص، قبل أن يقابلها، أن يعلِّق ورقة يدرج فيها اسمه وعمره وجنسيته، مثل تلك الورقة التي يعلقها المستشفى في إبهام المتوفى قبل نقله إلى الثلاجة. شحب لونها، قالت: يكفي هذا.

لا شك أنه تساءل عن هذا التقلُّب الذي حصل في وضعها، لقد خرجت من المستشفى وكانت على غير ما هي عليه الآن، قال: مارتينا، أنت في وضع لا يسمح لي بالبقاء، ربما نأتي ثانية إلى المنزل من أجل ما في صندوقك الزجاجي، لأطلع على كل ما أعطيتني من معلومات عنه.

لم تكن مارتينا قد تقدَّمت خطوة في مكانها، على الكرسي المحاذي لها جلست، فسألها: إذا كنت في حاجة لي قولي ذلك.

كانت قد أغمضت عينيها وربما لم تسمع جملته الأخيرة، ولأنه كان ينتظر منها جوابًا اقترب منها وقرَّب وجهه منها ليستمع، كانت آنذاك قد بدأت تفتح عينيها، وعندما رأت وجهه أمامها صاحت: اخرج أرجوك، لا تدعني أرى وجهك ثانية.

في اليوم الثاني رأت مارتينا في مكان الثلاجة القديمة أخرى جديدة، فتحت بابها ورتَّبت فيها ما حملته معها من لفائف طعام وزجاجات عصير، بعد ذلك بساعة، سمعت صوت النقالة تخرج من المصعد وسمعت مصطفى يسلِّم عليها وهو يسير في الممر، لكنها تشاغلت عما سمعته ولم تجب. ظنَّت زميلتها في العمل أن مارتينا أخذت برأيها الذي أعلنته لها بالأمس، وهذه خطوة جيدة تُحسب لها. انتظرها مصطفى وهو جالس إلى المنضدة وبجوار كفِّه كوب القهوة يتصاعد منه البخار، لكنها لم تأتِ.

سائح 5
الطريق إلى كازابلانكا 7
دنت الساعة وانشق القمر 10
شرفة زينب الجزّار 12
العراقي جيمس بوند 16
رسالة إلى موزع البريد 19
ديك وديك 21
نابليون وزينب 24
بيريه جيفارا 27
حفلة الموز 31
يكره سليم حرف السين 34
حصان المعارك 39
بنطلون حامد الهيتي 42
أنا وأنت 44
هارمونيكا 46
ضاع الزورق في الزحام 84
هُبَل 50
القفل 52
دعاء مستجاب 55

فطَر من سمع صوتها في رمضان 58
لولا بطّة 63
الأحول 67
البيرة للنساء والهولنديين 70
الشمر 73
السماء والأرض وما بينهما 75
آي لوف يو 79
درس في التعبير 81
سينما 83
كما تحب 85
حرامي رأس السنة الجديدة 89
دفتر تلفونات حسين الحسيني 92
الكشك 95
حصان أسود 97
من الطارق؟ 104
صندوق مارتينا 113

إلى أي مدى يمكن أن يذهب كاتب القصة في سرد أحداث وقعت حقيقة في حياته الشخصية أو حياة من عرفهم.

في القصص التي تضمها هذه المجموعة، قد يسأل القارئ: أين هي الحدود الفاصلة بين القصة وطريقة كتابتها وبين أنواع السرد الأخرى، كالسيرة الذاتية مثلًا، وهي أيضًا لها طرقها المتعددة في كتابتها؟

ليس هذا بغريب عن عائد خصباك، فهو يجد ذاته ككاتب، مع أي جنس أدبي آخر يعزز ويدعم نشاط ما يقدمه من سرد.

يُعدّ عائد خصباك أحد كتّاب السرد القلائل الذين يكتبون على صعيد الموضوع والأسلوب بوعي فني عالٍ، فقد بقي محافظًا منذ بداية مسيرته القصصية: على الابتكار والتغلغل في أعماق الحال الاجتماعية، من خلال اكتشاف ذوات من يقدّمهم، أو ما يتخفّى وراء القشرة الاجتماعية، لقد أجاد كسر الإيهام بين الواقع والفن.

هذه القصص، قد مهرها الكاتب بختمه الخاص، فاتقنها وبرع فيها وأجاد.

كتاب مرايا الثقافية 05

تصميم الغلاف إهداء من أحمد اللباد • اللوحة للفنان المصري الأرمني شانت أفيديسيان (1951 – 2018)